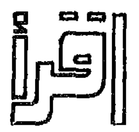
اقرأ

الدكتور عبد العزيز جادو

ألوان الجمال والغزل



دار المعارف



[٥٤٠]

ألوان
من الجمال والغزل

الدكتور عبد العزيز جادو

ألوان
من الجمال والغزل



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج. م. ع.

الإحساس بالجمال

اختلف الناس فى ماهية الجمال اختلافهم فى الأذواق والمشارب .. واختلفت مقاييس الجمال ومعاييره باختلاف الأمم والشعوب .. فمن الشعوب من اعتبر اصفرار اللون وكبر الأنف وصغر العيون والقدم ، وطول القامة ، من أمارات الجمال . ومنها من رأى الجمال فى بياض البشرة واحمرارها ، وصغر الأنف والفم ، وكبر العيون واعتدال القد ، إلى غير ذلك من صفات الجمال المصطلح عليها فى أرجاء البسيطة .

وكما أن للعين المنحرفة فتنتها عند البعض ، فإن للمعة السوداء مقامها عند البعض الآخر . وكما أن اليونانيين يفاخرون بالأنف الأقنى ، فإن الرومانيين كانوا يفاخرون بالأنف المعقوف ، والعرب بالأنف الأشم . ولا يكاد يكون هناك عضو من أعضاء الجسم إلّا أودع معنى من معانى الجمال أو نسب إليه عنصر من عناصر الجاذبية .

وقد ذهب العرب مذاهب شتى فى تعريف الجمال . فقال قوم إن الحسن يعتبر بلون الوجه ، والجمال يلاحظ بصورة أعضائه ، والملاحة هى التى تجمعهما . فكل مليح يكون حسنا وجميلاً معًا ، وليس كل حسن بجميل ، ولا كل جميل بحسن ، وأن الجميل أو الحسن هو الذى يأخذ بالبصر عن البعد ، فإذا دنا لم يكن كذلك ، والمليح هو ما يأخذ القلب عن القرب والبعد . وهو الذى إذا كررت فيه بصرك زادك حسنًا .

يزيدك وجهه حسنًا إذا ما زدته نظرا[1]

فهو تفاهم كلى بين الرجل والمرأة يتم بلحظة ، وبلحظة يولد ذلك الميل المترفع عن جميع الميول .. ذلك الميل الروحى الذى تبارى الشعراء فى القديم والحديث فى وصفه والتغنى به . وفى هذا المقام يقول « أفلاطون » فى تعريفه الجمال إنه « أمر موهوم بالحقيقة ، موجود بالعرض ، فهو عرض ظاهر تشعر به الحواس أو إحداها فترتاح إليه ، وتسرّ به النفس ، وينشرح له الصدر ، ويبتهج به القلب ، فهو مشترك بين الحواس كلها » .

---

(١) زهر الآداب جزء ثان ص ٣٢ .

تقسيم الحسن :

ولم يفت الأقدمين أن يخصصوا كل عضو بصفته ..

قال ثعلب عن ابن الأعرابي وغيرهما : الحسن فى الوجه صباحة ، وفى البشرة وضاءة ، وفى الأنف جمال ، وفى العينين حلاوة ، وفى الفم ملاحة ، وفى اللسان ظرف ، وفى القد رشاقة ، وفى الشمائل لباقة ، وكمال الحسن فى الشعر[1] . ويتسع البعض فى هذه الصفات فيقوم بعضها مقام البعض الآخر .

ولا تكاد تفرق اللغة فى المعنى بين الجمال والحسن والملاحة فى الخلق والخلق . والحسن : الجمال .. والملاحة : الحسن .. وقال سيبويه : الجمال رقة الحسن .

ولكن علماء الجمال يعرفون كلاً منها تعريفًا يميزه من الآخر ، وإن بقى عليه ظل من الغموض ، فقالوا فى الحسن : إنه تناسب فى الخلقة ، واعتدال البشرة ، وصفاء المادة .. وقيل : إنه مركب من الإضاءة والتناسب والصباحة .. وقيل : إنه بياض اللون ، وسواد الشعر ،

---

(١) « فقه اللغة » للثعالبى ص ٩٦ طبعة ١٩٥٢ .

وكل منها شطره ومن ذلك قول سيدنا عمر رضى الله عنه : « إذا تم بياض المرأة وحسن شعرها ، فقد تم حسنها » . وقول السيدة عائشة رضى الله عنها : « البياض شطر الحسن »[1] .

وجاءوا لكل لفظ من هذه الألفاظ بتعريف خاص به فقالوا :

إن **الجمال** : ما يدرك بالنظرة الأولى ، وهو يتعلق بالشكل العام ، كبسطة الجسم ، واعتدال القوام ، وحسن السمت .

وإن **الحسن** : يتناول الأجزاء بالتفصيل ، ويعرف بترديد النظر ، وفضل التأمل ، ودقة الفحص . وهو ما تنتخب على أساسه الآن ملكات الجمال ، أو على الأصح ملكات الحسن .

أما **الملاحة** : فهى ما تسمى بعذوبة النفس ، وحلاوة الروح ، وخفة الدم والظل ، وبراعة الظرف واللطف .

والذى تطمئن إليه النفس أن الجمال ، والحسن ،

---

(١) « تزيين الأسواق » و « ديوان الصبابة » ١٢٦ – ٣٤ و ٣٥ .

والملاحة ، والقامة ، والصباحة ، والبسامة ، والوسامة ، والقسامة ، والوضاءة ، والنضرة ، والبهجة ، إلى آخر هذه الألفاظ لأسماء مترادفات لمعنى واحد لا يمكن تعريفه ، لأن مقاييسه تختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة والأمزجة ، فلكل عصر جمال ، ولكل ذوق جمال ، وسنأتى بتفصيل ذلك فى فصل خاص .

ترتيب حسن المرأة :

ولقد قام الأقدمون بترتيب حسن المرأة فقالوا :

إذا كانت بها مسحة من جمال فهى وضيئة وجميلة . فإذا أشبه بعضها بعضًا فى الحسن فهى حُسانة ، فإذا استغنت بجمالها عن الزينة فهى غانية . فإذا كانت لا تبالى أن تلبس ثوبًا حسنًا ولا تتقلد قلادة فاخرة فهى مِعْطال . فإذا كان حسنها ثابتًا كأنه قد وُسم فهى وسيمة . فإذا قسم لها حظ وافر من الحسن فهى قسيمة . فإذا كان النظر إليها يَسُرّ الروح فهى رائعة . فإذا غلبت النساء بحسنها فهى باهرة .[1]

---

(١) « فقه اللغة » للثعالبى طبعة ١٩٥٢ ص ٩٦ .

كما قالوا إن لكل عضو فى الوجه محاسنه كما جاء فى كتاب « فقه اللغة » ننقله فيما يلى :

فى محاسن الحاجب :

من محاسنه الزجج والبلج . فأما الزجج فدقة الحاجبين وامتدادهما حتى كأنهما خُطّا بقلم . وأما البلج فهو أن تكون بينهما فُرجة ، والعرب تستحب ذلك .

فى محاسن العين :

الدّعج : أن تكون العين شديدة السّواد مع سعة المقلة .

البَرَج : شدة سوادها وشدة بياضها .

النجَل : سعتها .

الكَحَل : سواد جفونها من غير كحل .

الحور : اتساع سوادها كما هو فى أعين الظباء .

الوطف : طول أشفارها وتمامها . وفى الحديث أنه صلى الله عليه وسلم كان فى أشفاره وَطَف .

الشّهلة : حُمرة فى سوادها .

في محاسن الأنوف :

الشمم : ارتفاع قصبة الأنف مع استواء أعلاها .

القنا : طول الأنف ودقة أرنبته وحَدْبٌ فى وسطه .

الذَّلف : شخوص طرفه مع صغر أرنبته .

في محاسن الأسنان :

الشَّنب : رقة الأسنان واستواؤها وحسنها .

الرتل : حسن تنضيدها واتساقها .

التفليج : تفرج ما بينها .

الشتت : تفرقها فى غير تباعد ، بل فى استواء وحسن . ويقال منه : ثغر شتيت إذا كان مفلجًا أبيض حسنًا .

* * *

ورأى آخرون أن الجمال عند العرب هو : اعتدال القد ، وبروز النهد ، وبياض الصدر ، وثقل الردف ، ونحول الخصر ، وطول الجيد فالعيون النجلاء أو الدعجاء بسوادها ، الفتانة والجذابة بمغناطيسها ، والجفون الكحلاء ، الطويلة الأهداب كأسياف حادة فوق العيون .

والثغر الفستقى الخلاب ، الذى كحبة عنب أو نقطة دم ، وحين يبتسم يفتر عن عقد من اللؤلؤ . والشعر الحالك المسترسل على الأكتاف ، الذى يذكرنا بسواد الليل . أو الشعر الذهبى الذى يحاكى لونه أشعة الشمس الذهبية . والجبين الوضاء ، الوضاح ، الذى كأنه نظم من أقاح . والخدود الوردية الأسيلة ، اللطيفة ، الناعمة ، والابتسامة اللطيفة العذبة . والجيد الأتلع ، الأهيف ، الأبيض الناصع الذى يشبه عنق الغزال ، أو كأنه البدر فى جنح الدجى . والأنف الرقيق ، ذو البريق . والحاجب الذى يبدو كأنه حجب الهوى عن النظر . والخصر الدقيق ، اللين الرقيق . والزنود الممتلئة أو المفتولة البيضاء . والأيدى التى كصحائف اللجين . والنهود الرمانية ، البارزة فوق الصدر ، التى تترجرج حينما تختال الحسناء بمشيتها فتترجرج معها أوتار القلوب الخفاقة .. كل ذلك جمال ، جمال بأجلى مظاهره ، جمال بمعانيه وصفاته ، جمال وياله من جمال ! ..

ومن النوادر اللطيفة التى تروى فى هذا السياق ما نسب إلى عبد الملك بن مروان حيث قال لرجل من غطفان :

صف لى أحسن النساء ، فقال : « خذها يا أمير المؤمنين ملساء القدمين ، ردماء الكعبين ، مملوءة الساقين ، لفاء الفخذين ، فخمة الذراعين ، رخصة الكفين ، ناهدة الثديين ، حمراء الخدين ، كحلاء العينين ، زجاء الحاجبين ، لمياء الشفتين ، بلجاء الجبين ، شماء العرنين ، لطيفة الثغر ، مُحْلَوْلِكة الشعر ، غيداء العنق »[1] .

وروى عن بعضهم أنه قال لرجل أراد أن يتزوج : « استوثر فراشك » أى تخير السمينة من النساء ! .

وروى أن أبَا العباس السفاح كان يوما فى خلافته فخلا به خالد بن صفوان فقال : « يا أمير المؤمنين ، لقد ملكت نفسك امرأة واحدة واقتصرت عليها فإن مرضت مرضت ، وإن غابت غبت ، وحرمت نفسك التلذذ باستظراف الجوارى ، ومعرفة أخبار حالاتهن والتمتع بما تشتهى منهن . فإنٍ منهن يا أمير المؤمنين الطويلة الغيداء ، وإن منهن البضّة البيضاء ، والعتيقة الأدماء ، والدقيقة السمراء ، والبربرية العجزاء .. ولو رأيت يا أمير المؤمنين الطويلة البيضاء ، والسمراء اللعساء ، والصفراء

(١) « العقد الفريد » جزء ٣ ص ٢٣٤ الطبعة الأولى .

العجزات ، والمولدات من البصريات والكوفيات ، ذات الألسن العذبة ، والقدود المهفهفة ، والأوساط المخصرة ، والأصداغ المزرفنة ، والعيون المكحلة ، والثدى المحققة ، وحسن زيهن وزينتهن وشكلهن ، لرأيت شيئًا حسنًا » ..

وبعث الحارس بن عمرو ملك كندة جاريته « أم عصام » لتختبر له جمال الخنساء بنة عوف بن ملحم الشيبانى ، فلما رأتها الجارية وسمعت كلامها خرجت من عندها وهى تقول : « ترك الخداع من كشف القناع ». ولما رآها الحارث قال : « ما وراءك يا أم عصام ؟ » فقالت : « يأيها الملك .. صرح المخض عن الزبد . رأيت جبهة كالمرآة المصقولة ، يزينها شعر حالك كأذناب الخيل المضفورة . إن أرسلته خلته السلاسل ، وإن مشطته قلت عناقيد حلها الوابل . وحاجبين كأنهما خُطاً بقلم ، أو سوِّدا بجمم . تقوسا على مثل عين الظبية البهرة ، التى لم يذعرها قابض ولا راعتها قسورة . بينهما أنف كحد السيف المصقول ، لم يعبه قصر ولا طول .. حفّت به وجنتان كالأرجوان فى بياض كالجمان . شق فيه فم كالخاتم ، طيب المبتسم ، لذيذ الملتثم . فيه ثنايا غرّ ، ذا أشر . تقلب فيه

لسان بفصاحة وبيان ، يبين عن عقل وافر وجواب حاضر . تلتقى دونه شفتان حمراوان تجلبان ريقًا كالشهد . ركب ذلك فى رقبة بيضاء كالفضة على صدر كتمثال دمية (إله قديم) ، يتصل به ذراعان وعضدان ، ليس فيهما عظم يمس ، ولا عرق يجس . ركب فيهما كفان رقيق قصبهما ، لين عصبهما . تعقد إن شئت منهما الأنامل . نتأ فى ذلك الصدر ثديان كالرمانتين يخرقان عليها ثيابها ، ويمنعانها أن تتقلد سخابها . تحت ذلك بطن طوى كطى القباطى المدمجة ، كسى عجنا كالقراطيس المدرجة . تحاط بتلك العجن صرة كالمدهن المجلو . خلف ذلك ظهر فيه كالجدول . ينتهى إلى خصر نحيل لولا رحمة الله لانبتر . لها كفل يقعدها إذا نهضت كأنه دعص الرمل لبدة سقوط الطل . تحته فخذان كأنما حشيا ريش نعام . ركبا على ساقين عبلين يرى من صفائهما مخ عظامهما . يحمل ذلك كله قدمان لطيفتان كحرف اللسان . فتبارك الله مع صغرهما كيف يطيقان حمل ما فوقهما !!..[1]

هذه كلها صفات لتلك النعمة الساحرة ، القاهرة ،

---

(١) « العقد الفريد » الجزء الثالث ص ٢٣٥ .

نعمة الجمال التى تتلاشى أمامها نعم الوجود جميعا .. يالها من صفات تأخذ بمجامع القلوب وتستهوى الأفئدة .

وكتب المنذر إلى كسرى وقد أهداه جارية :

« إنى قد وجهت إلى الملك جارية معتدلة الخلق ، نقية اللون والثغر . بيضاء ، وطفاء ، كحلاء ، حوراء ، شماء ، أسيلة الخد . جثلة الشعر ، عظيمة الهامة ، عريضة الصدر ، كاعب الثدى ، حسناء المعصم ، رقيقة الأنف ، عزيزة النفس ، رزينة ، حليمة ، كريمة ، أديبة ، قطيعة اللسان ، زهوتة الصوت ، تبادرك الوثبة إذا قمت ، ولا تجلس إلّا بأمرك إذا جلست » .

وهذا وصف بليغ آخر لصفات الجمال ، يحوى المحاسن كلها .. فتبارك الله الجميل الذى يحب الجمال ..

أسرار الجمال :

يرى كاتب أسبانى أن أسرار جمال المرأة تتلخص فيما يلى :[1]

---

(١) عن « مجلة المختار » عدد أكتوبر ١٩٤٧ نقلاً عن مجلة « جولدن بوك »

بياض في ثلاثة : الجلد ، والأسنان ، واليدين .
سواد في ثلاثة : العينين ، أهداب الجفون ، الحاجبين .
حمرة في ثلاثة : الشفتين ، الخدين ، الأظافر.
طول في ثلاثة : القامة ، الشعر ، اليدين .
قصر في ثلاثة : الأذنين ، الأسنان ، الساقين .
سعة في ثلاثة : الصدر ، الجبين ، ما بين العينين .
امتلاء في ثلاثة : الشفتين ، الذراعين ، عضلتى الساقين .
صغر في ثلاثة : الخصر ، اليدين ، القدمين .
رقة في ثلاثة : الأصابع ، الشعر ، الكفل .

وأشبه بهذا ما قاله العرب منذ قديم الزمان إذ أنهم قالوا : يستحسن في المرأة :

طول أربعة وهى : أطرافها ، وقامتها ، وشعرها ، وعنقها .

وقصر أربعة : يديها ، ورجليها ، ولسانها ، وعينيها .. والمراد بهذا القصر المعنوى ، أنها لا تبذر مال زوجها ، ولا تخرج من بيتها ، ولا تستطيل بلسانها ، ولا تطمح بعينيها .

وبياض أربعة : لونها ، وفرقها ، وثغرها ، وبياض عينيها .

وسواد أربعة : أهدابها ، وحاجبيها ، وعينيها ، وشعرها .

وحمرة أربعة : لسانها ، وخدها ، وشفتيها .

وسعة أربعة : جبهتها ، وجبينها ، وعينيها ، وصدرها .

وصغر أربعة : فمها ، وأنفها ، وأذنيها ، وقدميها .

الجمال .. علم الغزل

كان للجمال والإحساس به أثر كبير فى ترقيق شعور الشعراء وصفاء مزاجهم والتهاب عواطفهم . فجاء شعرهم مصورًا لما يرونه من جمال فتان وحسن يأخذ بمجامع القلوب ، وما يتخيلونه من قصص كانت تقع لهم مع النساء . أما المرأة كسبب من أسباب السمو النفسى ، وأما الحب كصلة روحية ، فنجد أثره واضحًا فى ذلك الشعر .

وكان شعرهم الغزلى الكثير الذى وصفوا به الحوريات من الغوانى الحسان مما يشف عن جمال بديع ، شعرًا عذريًّا عفيفًا لا إثم فيه ولا فجور...

وإذا كان لابد من جمال ، فلا أقل من هذا الجمال الذى يستهوى النفوس ويستوحى القلوب .

والجمال الذى استولى على الحياة ، واستولى على عرش القدرة فيها ، هل له فن يعبر به الأديب أو الفنان أو الشاعر أو غيرهم عن آرائهم فى تقدير الجمال ؟..

نعم .. هو الغزل ، وهو أوسع نطاقًا من أى فن . فهو وعى صحيح للجمال ، وتقدير تام له ، وأديب هذا الفن أوسع أهل الدنيا فكرًا ، وأدقهم إحساسًا ، وأنشطهم ذهنًا ، وأكثرهم وعيًا للجمال ..

ولنأت بمثال على ذلك ، القصيدة التالية التى أودع فيها ناظمها محاسن أعضاء المحبوبة متفرقة :

الخد

أسيلة خد أفتديها بمهجتى
مهاة تصيد العاشقين بلحظة
مليكة حسن ذات عزّ وشوكة
عليها من الديباج أفخر حلة

الجبين

جبين صبوح لو تصبح عابد
به سبّح الخلاق فى كل ركعة

اللحظ

رعت بين ريم فى الفلاة غزالة
حكى لحظها لحظ المها بتلفتِ

الوجه

تفتح وردٌ فى كمائم وجهها
فولّى شقيق يرتدى ثوب خجلة

الحاجب

لها حاجب كالقوس يرشق أسهماً
تمزق أحشاء المعنّى برمية
ولو أفرغ النقاش جعبة فكره
لما خط قوسًا شبه ذاك بريشة

الجفن والهدب

وهدب طويل فوق جفن مكحل
بمكحلة الخلاق ليس بصنعةِ

الأذن

وأذن كأصداف اللآلى أنيقة
يحلّ بها الدر الثمين بقيمة

الأنف

وأنف جميل لو رآه مصور
لقال : مثالاً قد وجدت لمهنتى

الفم

وثغر بشكل القلب بادٍ ملمم
عليه من المرجان أجمل حلية

الأسنان

عقيق يمانى جلته ورصعت
به الدر فى طرز الهلال بقدرة

العنق

وعنق كعنق الظبى طاب عناقه
تحلى بعقدٍ من لآلٍ يتيمة

الصدر

وصدر صقيل كالسجنجل مُنْجلٍ
يميد كموجٍ فى ارتفاعٍ وخفضة

الثدى

تفلك فيه كوكبان بقدرة
يقيمان فى صدر الكمال بعزّة

النهود

نهود براها دون نقص إلاهها
وما نقصت حسنا سوى حسن لثمة

تباهت بنهدى صدرها حين أسفرت
جيوب قميص فى دلالٍ وبهجة
وقالت : لك التسبيح ربى وخالقى
لقد زدت حسنى فى نهود فليكة
خلقت إلهى الصدر منى حديقة
بها عقد الرمان أكمل عقدة
فصدرى ورمانى وجيدى وما حوى
لجنة عدن بالمكاره حفت
ولولا تعنى فى غرامى عاشقى
لما نال حظاً من نعيمى وغبطتى
فباتت بعقد النهد عينى قريرة
كما قرّ عينا من رماه بنظرة

المعصم والأنمل

لها معصم مثل اللجين وأنمل
إذا مسَّها المسقوم فاز بصحة

الساعد

على الساعد الملآن ضاق سوارها
وخاتم ياقوتٍ بأصبع فضة

الردف

وردف إذا ماست تموّج واستوى
على متنه كشحٌ نحيل بفطرة

القد

وقد إذا قامت حسبت قوامه
قناة متى هبَّ النسيم تثنت

الهدب الطويل

تدفق نور الحسن من شمس طرفها
فلاح صباح فى جبين ووجنة

ولما رأى الرحمن فرط ضيائه
تدارك ذاك الأمر منه بحكمة
فمدَّ من الهدب الطويل مظلة
تصون خدودًا من شهاب بمقلة

* * *

وقال شاعر آخر :

صفها بحق تذللى ونواحى
يا حادى الأشواق والأفراح
بيضاء جملها الكمال وزانها
ببهائه وجه النهار الضاحى
أحلى من الشمس المنيرة وجهها
وأرق من وجه السماء الصاحى
حسناء كالبدر المنير بخدها
ماشئت من ورد ومن تفاح
جادت علىّ بزورة من فضلها
من بعد تعذيبى وطول نواحى
وأتت إلىّ كزهرة فتانة
تشفى الفؤاد بعطرها الفياح

هــزَت فـؤادى واستــرقـت مهــجتى
وحــنت عــلىّ وضـمــدت لجــراحى
رقـت كــما رق النـسـيم وأقـبـلت
تــرنــو إلىّ بــطرفـهــا الفـضــاح
يــالـيلة حـتى الصـبــاح سهــرتهــا
يــاليتهــا كــانت بـغــير صبــاح

* * *

وما أحسن ما قال بعضهم فى الوصف :
خـــدّاه وردى ، والعـــذار بنـفسجى
والـريق خمـرى واللواحظ نــرجسى
فــكــأنــنى مــن خــده وعــذاره
ورضـــابــه ولحـــاظــه فى مجـــلس

* * *

وقال النجيب بن الدباغ :
يـــا رب إن قـــدرتــه لمـقـــبِّــل
غـيــرى فـللمســواك أو لـلأكـؤس
وإذا حكمت لنــا بصحبــة ثــالث
يـــا رب فَلْيَــكُ شمعــة فى المجلس

ولئن قضيت لنا بعين مراقب
يارب فلتكُ من عيون النرجس

بل لم يصبر بعضهم على وقاحة عيون النرجس فقال :

غضى جفونك يا عيون النرجس
فعسى أفوز بقبلة من مؤنس
فلقد تحير إذ رآك شواخصًا
ترمينه بلواحظ المتفرس

وقال الصفى الحلى :

أقول وطرف النرجس الغض شاخص
إلينا وللنمام حولى إلمام
أيا رب حتى فى الحدائق أعينٌ
علينا وحتى فى الرياحين نمام

وما ألطف قول مجير الدين بن تميم :

كيف السبيل للثم من أحببته
فى روضةٍ للزهر فيها معرك
ما بين منثور وناضر نرجس
مع أقحوانٍ وصفه لا يدرك

هــذا يشــير بــأصبــع وعيــون ذا
تــرنــو إلىّ وثغــر هــذا يضحــك

وما أروع قول « بشار بن برد » :

حوراء إن نظرت إليـ ـك سقتك بالعينين خمرًا
وكــأن رجــع حــديثهــا قطع الرياض كسين زهرًا
وكــأن تحــت لســانها هاروت ينفث فيه سحرًا
وتخــال مــا جمعت عليـ ـه ثيابها ذهبًا وعطرًا
وكــأنها بــرد الشــرا ب صفا وصادف منك قطرًا
جــنيــة أنــسيــة ... أو بين ذاك أجل أمرًا

وقول « أبو نواس »

متتـايه بجمـاله صلف لا يستطاع كلامه تيها
للحسن فى وجناته بدع ما إن يمل الحسن قاريها
لو كانت الأشياء تعقله أحللتـه إحلال باريها
لو تستطيع الأرض لانقبضت حتى يصير جميعه فيها

وقوله أيضًا :

كــأن ثــيــابــه أطلــ ـعن من أزراره قمرًا
يــزيدك وجهــه حسنًــا إذا مــا زدتــه نــظرًا

ألوان الملاحة والجمال
فى الأدب العربى القديم

لقد كان - ولا يزال - لكلٍ من البيض والصفر والحمر والسمر والسود من النساء عشاق مغرمون . وكان لكل من هؤلاء المغرمين أشعار غزل قالوها فيمن كانوا يعشقون . وكانوا يختلفون فى ترجيح لون البياض على غيره . وكثيرهم الذين يعتقدون اعتقاد الشاعر الذى قال :

شهد المؤمل يوم يلقي ربه أن البياض طراز كل جمال

بيد أننا نرى فى الأدب العربى أقوالاً وآراءً لا تعد ولا تحصى فى ترجيح السمرة تارة ، والسواد تارة ، والصفار تارة ، ونورد فيما يلى بعض هذه الأقوال :

البياض :

يكون البياض آية الملاحة والجمال ، وإذا مازجته الصفرة والحمرة .. قال أبو الفرج الأصفهانى فى كتاب

« النساء » : يمازج البياض لونان يزيدانه حسنا ، هما الحمرة والصفرة .

وأصحاب هذا الرأى كذلك منقسمون إلى اثنين . منهم من رجح بياض الحمرة ، ومنهم من رجح بياض الصفرة .

وقد غالى الفريق الأول ، فجعلوا صفة الحمرة اسماً لحسان النساء كما قال (سيبويه) .. ومن هذا الفريق (جرير) الشاعر المشهور . سُئل يومًا عن (الأخطل) فقال فيه : « هو أوصفنا للحمر » أى للحسان الجميلات من النساء .

ومن أمثالهم : « الحسن أحمر » . قال أحد شعرائهم :

هجان عليها حمرة فى بياضها
يروق بها العينين والحسن أحمر

وقال آخر :

ذات خد يكاد يدميه وهم
من مشير بالجد أو بالمزاح
فى بياض وحمرة فكأن قد
صيغ حسنًا من ماء مزن وراح

وقال بشار بن برد :

وإذا خرجت تقنعي بالحسن إن الحسن أحمر

عن أبي الحسن المدائني قال : « الحسن أحمر وقد تضرب فيه الصفرة مع طول المكث في الكن والتضمخ بالطيب كما تضرب بيضة الأدحى واللؤلؤة المكنونة » وقد شبه الله عز وجل في كتابه فقال : ﴿ كأنهن بيض مكنون ﴾ .. والمكنون المصون ، والمكن المستور ..

وقال أبو دهبل وأكثر الناس يرويه لعبد الرحمن بن حسان بن ثابت الأنصاري : « وهي زهراء مثل لؤلؤة الغواص مِيزَت من جوهر مكنون » .

وقال ابن الرُّقَيَّات : « واضح لونها كبيضة أُدحِيّ لها في النساء خلق عميم » .. والعميم : التام – والأُدحِيُّ موضع بيض النعامة ..[1]

وقالوا إن أحسن ألوان البدن بياض مخلوط بأدنى صفرة ، وذلك مصداقا لقول سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أم سلمة أنها قالت : « قلت يا رسول الله ،

---

(١) عن كتاب « الكامل » الجزء الأول ص ١٧٣ / ١٧٤ .

أخبرنى عن قول الله : ﴿ كأنهن بيض مكنون ﴾ ، قال : « رقتهن كرقة الجلدة التى رأيتها فى داخل البيضة تلى القشرة »[1] .

وغالى الفريق الثانى بالصفرة ، فجعلوها عنوان جمال المرأة البيضاء . وقالوا إن الجارية الحسناء تتلون بلون الشمس ، فهى بالضحى بيضاء ، وبالعشى صفراء ، ومن هؤلاء ذو الرمة فهو يقول :

بيضاء صفراء قد تنازعها
لونان من فضة ومن ذهب

ويقول أيضاً :

بيضاء فى دعج ، صفراء فى نفج
كأنها فضة قد مسها الذهب

وقال آخر وهو (قيس بن الحطيم) :

هيفاء مثل الشمس عند طلوعها
فى الحسن أو كدنوها لغروب

وكلنا نعلم أن الشمس تكون صفراء عند شروقها ،

---

(١) عن « جامع البيان فى تفسير القرآن » للإمام الصفوى ، جزء ثالث - سنة ١٩٣٦ ص ٩٦ / ٩٧ .

وعند دنوها للغروب .

ولأبى الفرج الأصفهانى رأى فى تعليل حدوث لونى الحمرة والصفرة يبديه فى قوله : « أما الحمرة فتعترى البياض من رقة اللون وصحة الدم ، وأما الصفرة فتعترى البياض لاستقارهن وملازمتهن البيت ، والدعة والتضمخ بالطيب .. إلخ .. » .

وقد يكون فى هذا شىء من الحقيقة ..

الصفرة :

ومن العرب من كان يهيم باللون الأصفر أينما كان ، سواء فى الورود أو الأزهار ، أو اللباس ، أو الطعام . ويعشقون المرأة الصفراء ..

وكانوا يشبهون الرجل الجميل بالديباج الأصفر كما هو معروف .

ذكر ابن الطقطقى أن محمدًا بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب عليهم السلام كان من أحسن الناس صورة ، وكان يسمى الديباج الأصفر لحسنه وجماله ، فأحضره المنصور وقال له : أنت الديباج

الأصفر ، قال : كذا يقولون .[1]

ووصف الأحوص بن محمد الشاعر (حبابة) جارية يزيد بن عبد الملك عندما غنته ، فقال :[2]

وعهــدى بهــا صفــراء رؤد كــأنمــا
نضا عرق منها على اللون مجسـدا
مهفهفــة الأعــلى وأسفــل خلقهــا
جـرى لحمـه مـا دون أن يتخـددا

ولعل من أكثر الشعراء الذين رددوا التغنى بالصفراوات بشارًا بن برد ، فقد روى المرتضى فى أماليه طرفًا من هذا .. قال فى وصف قينة :

وأصفــر مثــل الــزعفـران شــربتـه
علـى صـوت صفـراء التـرائب رود

وقال أيضًا يصف جارية مغنية[3] :

---

(١) « الفخرى » ص ٢٢١ .

(٢) « الأغانى » للأصبهانى ؛ جـ ١٥ ص ١٠٢ طبعة دار الثقافة بيروت ١٩٥٨ .

(٣) « الأمالى » للمرتضى جـ ٢ ص ١٣٨ / ١٣٩ .

لعمرو أبي زوارها الصيد أنهم
لفي منظر منها وحسن سماع
تصلى لها آذاننا وعيوننا
إذا ما التقينا والقلوب دواع
وصفراء مثل الخيزرانة لم تعش
ببؤس ولم تركب مطية واع
جرى اللؤلؤ المكنون فوق لسانها
لزوارها من مزهر ويراع

ويخبرنا المرتضى أن بشارًا كثيرًا ما يشبب بامرأة صفراء، يروى مثلًا على هذا قوله :

أصفراء لا أنسى هواك ولا ودّى
ولا ما مضى بيني وبينك من عهد

لقد كان ما بيني زمانًا وبينها
كما كان بين المسك والعنبر الورد

وقوله أيضًا :[1]

---

(١) « الأمالى » جـ ٢ ص ١٤١ / ١٤٢ . وقد روى الشطر الثانى (ملاحًا فلما غبت صرن قباحا)

أصفـراء كـان الـود منـك مبــاحًـا
ليـالى كـان الهجــر منـك مــزاحًـا
وكـان جوارى الحى إذ كنت فيهم
قبـاحًـا فلما غبت صــرن مـلاحًــا

ويحدثنا الأصبهانى فى كتابه « الأغانى » فيقول إن « قلم الصالحية » جارية صالح بن عبد الوهاب ، مولدة صفراء حلوة حسنة الغناء والضرب حاذقة[1] .. وأن « ميتم الهشامية » كانت صفراء مولدة من مولدات البصرة ، وبها نشأت وتأدبت وغنت ، وهى جارية المتوكل . وقد عرف عنها أنها أول من عقد من النساء فى طرف الإزار زنارا وخيط أبريسم ثم تجعله فى رأسها فيثبت الإزار ولا يتحرك ولا يزول[2] .

وكانت « عنان » جارية مولدة من مولدات اليمامة ، وبها نشأت وتأدبت فاشتراها « الناطفى » ورباها ، وكانت صفراء جميلة الوجه ، شكلة[3] ، مليحة الأدب والشعر ،

---

(١) « الأغانى » جـ ١٣ ص ٣٤٨ .
(٢) « الأغانى » جـ ٧ ص ٢٨٧ .
(٣) الشكلة : ذات الدلال والغنج .

سريعة البديهة ، ولها مساجلات مع أبي نواس ومروان بن أبي حفصة وغيرهما[1] .

وكانت « دنانير » مولاة يحيى بن خالد البرمكي ، صفراء صادقة الملاحة . ومن أحسن النساء وجهًا ، وأظرفهن ، وأكملهن ، وأحسنهن أدبًا ، وأكثرهن رواية للغناء والشعر[2] .

وكانت « بذل » مولاة جعفر بن موسى الهادى والأمين بعده – صفراء مولدة من مولدات المدينة وربيت بالبصرة ، وقد روى أنها كانت تغنى ثلاثين ألف صوت ، ولها كتابات فى الأغانى ، وكانت من أحسن الناس غناءً فى دهرها ، وأروى خلق الله تعالى للغناء[3] .

لقد عرفت هؤلاء القيان بفن الإغراء والتمكن من سحر أربابهن وخلب عقولهم ، حتى لقد قال الجاحظ « ليس يحسن سحر هاروت وماروت ، وعصا موسى ،

---

(١) « الأغانى » جـ ٢٢ ص ٥٢١ .
(٢) « الأغانى » جـ ١٨ ص ١٤ / ١٦ .
(٣) « الأغانى » جـ ١٧ ص ٣٢ .

وسحرة فرعون ، إلّا دون ما يحسنه القيان »[1] .

ويقول الأستاذ أحمد أمين فى مقال له عن البغداديين : « إنهم هاموا باللون الأصفر ، وتغزلوا بالوجوه الصفر ، وصبغوا ثيابهم بالصفرة ، وافتتنوا بالزهور الصفر ، وأكثروا من اتخاذ الطعوم الصفر ، ومدحوا الجواهر الصفر »[2] .

السمرة :

روى أبو على القالى فى كتابه « الأمالى » عن بهلول الزبيرى ، قال : « أتى رجل ابنة الحسن يستشيرها فى امرأة يتزوجها فقالت : « انظرها ركهاء جسيمة » .. والركهاء ههنا السمراء .

وقال شاعر من عرب الجاهلية وقد ذكر امرأة :

من السمر اللدان إذا أسكرت
وصرف الموت فى السمر اللدان
شبيهات الرماح قنا متون
وكلمًا فى القلوب بلاسنان

---

(١) رسائل الجاحظ « كتاب القيان » جـ ٢ ص ١٧٥ تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون .

(٢) مجلة (الرسالة) ١١ نوفمبر ١٩٣٥ .

وشبه أحدهم السمرة بذوب كافور بمسك ، قال يصف حبيبًا له أسمر :

كيف لا أعشق ظبيًا سارحًا فى ظل حلك
إنما السمرة فيه ذوب كافور بمسك

وهذا التشبيه شبيه بما جاء فى قصيدة لابن بسام فى كتابه « الذخيرة » يقول فيها :

قدّ قضيب وبدر ديجور وثغر در ولحظ يعفور
نازل قلبى وأى مصطبر يفى بتلك اللواحظ الحور
كأنما نوره وسمرته مسك مشوب بذوب كافور

ولكن .. ومع ذلك ، كان سيدنا على بن أبى طالب رضى الله عنه ، ممن كرهوا السمرة ، فقد قال : « من تزوج امرأة سمراء ثم طلقها فعلىّ مهرها » .

السواد :

لقد كان ابن رشيق ، والجاحظ ، والشريف الرضى ، والعباس بن الأحنف ، وابن الرومى ، وأبو حفص الشطرنجى ، فى مقدمة من تغزلوا بالسود من النساء ووصفوهن ، مادحين لهن ، مفضلين لونهن « السواد » على

لون « البياض » ، وقد نستغرب نحن ذلك منهم ، ولكنه كان مألوفًا فى أزمانهم التى خلت من قبلنا ، وهاهى بعض أقوالهم :[1]

يقول ابن رشيق :

دعا بك الحسن فاستجيبى يا مسكُ فى صبغة وطيب

تيهى على البيض واستطيلى تيه شباب على مشيب

ولا يرعك اسوداد لون كمقلة الشادن الربيب

فإنما النور عن سواد فى أعين الناس والقلوب

أو ليس النور : – نور الهدى – صادرًا عن القلب ، والقلب أسود ؟ .. أو ليس نور العين صادرًا عنها وهى سوداء ؟ .. أو ليس شعر الشباب أسود ؟ وهو محبوب مطلوب ؟ .. أو ليس شعر الشيخوخة أبيض وهو مكروه غير مرغوب فيه ؟ .. فما يحزنك بعد يا سوداء ؟ .. أو ليس المسك فى صبغتك التى أنت فيها ؟ .. فتيهى على البيض واستطيلى ، واستجيبى الحسن إنه يدعو بك إليه !!..

وعلى هذا النحو يخاطب « ابن رشيق » محبوبته السوداء !!

---

(١) انظر مجلة « الهلال » الجزء ٧ السنة ٣٤ – ابريل ١٩٢٦ .

ويقول أبو حفص الشطرنجى :

أشبهك المسك وأشبهته قائمة فى لونه قاعدة
لا شك إذ لونكما واحد إنكما من طينة واحدة

ويقول ابن الأحنف فى زنجية اسمها « بكتم »

أحب النساء السود من أجل بكتم
ومن أجلها أحببت من كان أسودا
فحبى بمثل المسك أطيب نكهة
وحبى بمثل الليل أطيب مرقدا

وقال الجاحظ فى امرأة سوداء أحبها :

وإن سواد العين فى العين نورها
وما لبياض العين نور فيعلما

ولم يزد الشريف الرضى على معانى من تقدم ذكرهم شيئًا ، قال :

أحبك يالون الشباب فإننى
رأيتكما فى العين والقلب توءما
سواد يود البدر لو كان رفعة
بجبهته أو شق فى وجهه فما

أما ابن الرومى فلم يصف حبيبة له سوداء . بل طلب

منه أبو الفضل الهاشمى أن يذكر حبيبة سوداء له فى شعره ويستغرق أوصافها الظاهرة والباطنة أيضًا ، وقد فعل ، فأنشد فيها قصيدة طويلة مطلعها :

أكسبها الحسن أنها صبغت
صبغة حب القلوب والحدق

جمال العيون .. وسحر الجفون

العيون سر الجمال وآيته وغايته .. بل هو رسوله الأمين إلى القلوب بالبلاغ المبين .. بها يوصل القلب إلى القلب ماشاء مما يعجز الأقلام . وهى مبعث سهام منها مايُسقم فيشفى ، ومنها مايبرئ ويشفى . بل هى ممثل العواطف بالبيان . ومطل نفس الانسان . إنها فى نظر كل البشر من أكبر وأعظم آيات الله البينات .

وما أكثر ماتغزل الشعراء فى كل أمة ونحلة بالعيون . ولانحسبنا مبالغين إذا قلنا إنه مامن شاعر داعب القريض إلّا كان بدء تلك المداعبة حديثًا عن : نرجس العيون وجفونها الصحاح ، وأهدابها الفاتكة . ونظراتها القاتلة .. وغزلا فى : العيون الكحلاء ، والعيون الحوراء .

وأهل الغريب يذهبون إلى أن : الحور فى العين شدة سواد سوادها ، وشدة بياض بياضها . والذى عليه العرب

إنما هو نقاء البياض فعند ذلك يتضح السواد[1] وفى هذا منتهى جمالها . وهو وصف للحور العين .

والحور جمع حوراء وهى المرأة البيضاء . والعين : حسان الأعين .

﴿ كذلك وزوجناهم بحور عين ، يدعون فيها بكل فاكهة آمنين ﴾[2]

﴿ متكئين على سرر مصفوفة وزوجناهم بحور عين ﴾[3]

﴿ وحور عين ، كأمثال اللؤلؤ المكنون ﴾[4]

وفى العيون الحوراء قال جرير :

إن العيون التى فى طرفها حور
قتلننا ثم لم يحيين قتلانا
يصرعن ذا اللب حتى لاحراك به
وهن أضعف خلق الله إنسانا

---

(١) عن « الكامل » جزء ثان ، صفحة ٩ .

(٢) سورة الدخان الآيتان ٥٤ - ٥٥ .

(٣) سورة الطور ، آية ٢٠ .

(٤) سورة الواقعة ، الآيتان ٢٢ - ٢٣ .

وكان بشار بن برد فى مقدمة الشعراء العرب الغزليين الذين أطنبوا فى وصف الجمال بالرغم من قبح منظره . ويقال إن أدق وصف لجمال امرأة جاء فى قوله :

حوراء إن نظرت إليك
سقتك بالعينين خمرًا
وكأن تحت لسانها
هاروت ينفث فيه سحرًا

وقوله :

غراء حوراء من طيب إذا نكهت
للبيت والدار من أنفاسها أرج
كأنها قمر راب روادفه
عذب الثنايا بدا فى عينه وهج

وكان أبو نواس يجيد فى وصف ماتجنى العيون من أسر القلوب ، وقد يستجاد قوله فى الجمع بين الحور والتفتير فى جفون الملاح :

كأن ثيابه أطلعن من أزراره قمرًا
لوجه سابرى لو تصوب ماؤه قطرًا

وقد خطت حواضنه له من عنبر طررًا
بعين خالط التفتير فى أجفانها الحورًا
يزيدك وجهه حسنا إذا مازدته نظرًا

وقد نظر أبو تمام إلى هذا البيت الأخير حين قال :

كلما زدناك لحظا زدتنا حسنا وطيبًا

ويقول شهاب الدين فى العيون الفاترة التى تجلب الفتون :

قد تنبأ بالسحر طرفك لما
أن سطا بالفتور فى كل قلب
غزل فى حماسة ماحواه
ناظر غير طرفك المتنبى

ويقول :

سلبتنى الأحداق قلبًا مغرمًا
بفتور طرف ساحر بفتون

ويقول أيضًا :

طرفك هذا به فتور
أضحى لقلبى به فتون

قد كنت لولاه فى أمان
لله ماتفعل العيون

والفتور هو انكسار النظر وذبوله ، وهو معنى وصفهم للعين بالمرض وأيضا بالسقم . قال ابن عباد :
ونظرن من خلل الشعوز بأعين
مرضى يخالطها السقام صحاح

ويقال : طرف فاتر ، وبه فتور ، وهو الذى يزيد استحسانه حتى يسترخى له من ينظره . وهو الذى أشار إليه سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز بقوله : ﴿ وعندهم قاصرات الطرف عين ﴾[1] .
قال ذو الرمة :
تبسَّمن عن نور الاقاحى فى الثرى
وفترن عن أبصار مضروجة نجل[2]

وفى خلق العين لأخطار الهوى يقول مسلم بن الوليد :

---

(١) سورة الصافات ، آية ٤٨ .
(٢) عين مضروجة : واسعة المشقّ .

وممكورة رود الشباب كأنها
قضيب على دعص من الرمل أهيل
نهاني عنها حبها أن أسوءها
بلمس فلم أفتك ولم أتبتل
أخذت لطرف العين منها نصيبه
وأخليت من كفى مكان المخلخل
سقتنى بعينيها الهوى وسقيتها
فدب دبيب الراح فى كل مفصل

وكان لشكل العيون المراض عند بعض الشعراء أسمى معانى الجمال عندهم . يقول الشريف الرضى :

ياقلب مالك لاتفيق وقد رأت
عيناك كيف مصارع العشاق
فتكت بك الحدق المراض ولم تزل
تشجى القلوب جناية الأحداق

وقد جمع الشهابى جناية الأحداق فى قوله :

وظبى أنس سبا الآحاد ناظره
فى طرفه عشرة خصت بها البشر

سحر ، فتور ، سقام ، صحة ، وطف[1]
غنج ، فتور ، نشاط ، حوّة ، حور[2]

أما أبو تمام فإنه يحكم بأن العيون من جنود الله يميت بها من يشاء ، ويقول فى ذلك :

يا جفونًا سواهرًا أعدمتها
لذة النوم والرقاد جفون
يبلى الجسم لكن الشوق حى
ليس يبلى وليس تبلى الشجون
إن لله فى العباد منايا
سلطتها على القلوب العيون

وأرق من هذا قوله من قصيدة أخرى :

بيض يدرن عيونهن إلى الصبا
فكأنهن بها يدرن كئوسا

وقوله فيما كتب به إلى الحسن بن وهب ، وكان أهدى إليه هدية من فتن الجمال :

---

(١) الوطف : كثرة شعر العينين والحاجبين .

(٢) قال الأصمعى : الحوّة حمرة تضرب إلى السواد (الصحاح) .

قد جاءنا الرشا الذى أهديته
خرقا ولو شئنا لقلنا المركب
لدن البنان له لسان أعجم
خرس معانيه ووجه معرب
يرنو فيثلم فى القلوب بطرفه
ويعنّ للنظر الحرون فيصحب

وللقارئ أن يتأمل عجمة اللسان وفصاحة الوجه فى هذا الشعر البليغ .

وكان البحترى من أرق الشعراء وأدقهم فى الإفصاح عن سحر العيون . وانظر كيف طاوعه الفن وهو يصور أثر اللحظ فى هوى القلب . وحاجة النفس ، بقوله :

غرير تراءاه العيون كأنما
أضاء لها فى عقب داجية فجر
ولو يبتدى فى بضع عشرة ليلة
من الشهر ماشك امرؤ أنه البدر
إذا انصرفت يوما بعطفيه لفتة
أو اعترضت من لحظة نظرة شزر

رأيت هـوى قلب بـطيئا نـزوعـه
وحاجة نفس ليس عن مثلها صبر

وكيف وازن بين فترة النظرة ، وحدّة الخطرة ، فى قوله :

غـانيـة لم أغن عـن حبـهـا
يـقتـل فى أجـفـانها الـسـحـر
إن نـظرت قـلت بهـا ذلـة
أو خـطرت قـلت بهـا كـبر

ولقد كان ابن الرومى ظريفًا فى مقابلته بين عين المحب وعين الحبيب إذ قال :

عينى لعينـك حـين تنـظر مقتـل
لكن عينـك سهم حتف مـرسـل
ومن العـجـائب أن مـعنى واحـدًا
هـو منـك نسهم وهـو منى مقتـل

وأشعار الغزل مليئة بمثل هذه الأوصاف البديعة التى يضفيها كل شاعر على محبوبته . وتختلف هذه الاوصاف باختلاف إحساس الشاعر أو شعوره أو رؤيته الإبداعية أو

الجمالية أو الفنية أو الذوقية .

ولقد أجمع الشعراء على أن الجمال الحسى إنما يكون فى جمال العين . وجمال العين فى صفائها وشفافيتها .. فى صفاء مائها .. فى لحظها .. فى صلتها بالأعضاء المجاورة . وفى تأثرها بصفات عقل صاحبها ، والخلق الجميلة التى اكتسبها .

لغة العيون :

وللعيون لغة عالمية يفهم بها المريدون ماتنطوى عليه العيون من أسرار ، وماتكتمه فى أعماقها من معان ، وقالوا :

إن العيون الواسعة تدل على الخبرة والذكاء .

والعيون العميقة تدل على نفس كئيبة قلقة .

والعيون الكبيرة تدل على صفاء النفس .

والعيون الصغيرة تدل على حدة العاطفة والنشاط الموفور .

أما العيون اللوزية فتدل على الرقة والحنان .

وأصحاب العيون المستديرة متكاسلون هادئون .

وأصحاب العيون السود مزاجيون غيورون .
أما أصحاب العيون العسلية فأذكياء أصحاب عزم .
وأصحاب العيون الزرقاء ذوو إحساس مرهف .
أما أصحاب العيون الخضراء فمكارون ساخرون من الغير .

أسرار العيون :

ويطيب لنا أن نستكمل هذا الفصل بقطعة أدبية رائعة للآنسة مى زيادة تصف فيها « العيون » بأسلوب جذاب يخلب الألباب ، نوردها فيما يلى لما تحتويه من متعة وفائدة :

« تلك الأحداق القائمة فى الوجوه ، كتعاويذ من حلك ولجين ، تلك المياه الجائلة بين الأشفار والأهداب كبحيرات تنطقن الشواطىء وأشجار الحور .. »

العيون ، ألا تدهشك العيون ؟ .. العيون الرمادية بأحلامها .. والعيون الزرقاء بتنوعها .. والعيون العسلية بحلاوتها .. والعيون البنية بجاذبيتها .. والعيون القاتمة بما يتناوبها من قوة وعذوبة .

* * *

جميع العيون ..
تلك التى تذكرك بصفاء السماء .
وتلك التى يركد فيها عمق اليموم .
وتلك التى تريك مفاوز الصحراء وأسرابها .
وتلك التى تخرج بخيالك فى ملكوت أثيرى كله بهاء .
وتلك التى تمر فيها سحائب مبرقة مهضبة .
وتلك التى لايتحول عنها بصرك ، إلاّ ليبحث عن شامة فى الوجنة .

العيون الضيقة المستديرة . والعيون اللوزية المستطيلة .
وتلك الفائرة فى محاجرها لشدة ماتتمعن وتتبصر .
وتلك الرحيبة اللواحظ البطيئة الحركات .
وتلك التى تطفو عليها الأجفان العليا بهدوء ، كما ترفرف أسراب الطيور البيضاء على بحيرات الشمال .
وتلك الأخرى ذات اللهيب الأخضر التى تلوى شعاعها كعقافة كلاب على القلب فتحتجنه ، وغيرها . وغيرها . وغيرها ..

العيون التى تشعر ، والعيون التى تفكر . والعيون التى تتمتع ، والعيون التى تترنم . وتلك التى عسكرت فيها

الأحقاد والحوافظ . وتلك التى غرزت فى شعابها الأسرار ..

* * *

جميع العيون وجميع أسرار العيون .
تلك التى يظل فيها الوحى طلعة خباة .
وتلك التى تكاثفت عليها أغشية الخمول .
وتلك التى يتسع سوادها أمام من تحب ، وتنكمش لدى من تكره .

وتلك التى تفتأ سائلة : « من أنت ؟ » وكلما أجبتها زادت استفهامًا .
وتلك التى تقرر فى لحظة : « أنت عبدى »!
وتلك التى تصرخ : « بى احتياج إلى الألم ، أليس بين الناس من يتقن تعذيبى ؟ »

وتلك التى تقول : « بى حاجة إلى الاستبداد فأين ضحيتى ؟ »
وتلك التى تبسم وتتوسل .
وتلك التى يشخص فيها انجذاب الصلاة ، وانخطاف المصلى .

وتلك التى تظل مستطلعة خفاياك وهى تقول : « ألا تعرفنى ؟»

وتلك التى يتعاقب فى مياهها كل استخبار ، وكل انجذاب ، وكل نفى وكل إثبات .

العيون ، جميع العيون ، ألا تدهشك العيون ؟

* * *

وأنت مالون عينيك ومامعناهما ، وإلى أى نقطة بين المرئيات أو وراءها ترميان ؟ ..

قم إلى مرآتك ..

وانظر إلى طلسميك السحريين ، هل درستها قبل اليوم ؟

تفرس فى عمق أعماقهما ، تتبين الذات العليمة التى ترصد حركات الأنام ، وتساير دورة الأفلاك والأزمنة .

فى عمق أعماقهما ، ترى كل مشهد وكل وجه وكل شىء .

وإذا شئت أن تعرفنى .. أنا المجهولة ، تفرس فى حدقتيك ، تجدنى نظرك فى نظرك على رغم منك .

حديث النهود

للشعراء فى كل زمان ، مقطعات فائقة ، وأبيات رائعة ، يصفون فيها أعضاء المحبوبة . وقد أكثروا من التشبيب بالوجه وأعضائه البسيطة والمركبة لكونه أشرف وأبهج . وأما ماعداه فنادر إن تيسر لشاعر بيت أو بيتان أو أكثر فى عضو بعينه .

وأحسب أن تباين الطباع فى تذوق أسرار الجمال ، هو السبب فى أن الشارع الحكيم أباح للخاطب أن يرى من مخطوبته وجهها وكفيها . فالوجه عنوان الجمال . والكفان مرآة السمن والنحافة . وبرؤية الجميع يتحقق للإنسان الشكل الذى يصبو إليه .

كذلك سمعنا الشعراء يتغزلون بالثغور وبردها ، وحر أنفاسها ولماها ، وبالخدود الأسيلة ، والقدود الرشيقة ، والمعاصم المنقوشة ، والزنود المدرعة .

ولقد خلق الله البارئ المصور الأنثى وجعل لها عضوًا

بارزًا يسبى العقول بحسنه ، ويجذب الأبصار . وتهفو إليه الأفئدة .. ذلك هو الثدى الذى جَمَّل الله به صدر الحسناء ببديع صنعه كيما يكون نعيمًا لبعلها ، ونبعًا ثرًّا يفيض بكل الحنان لطفلها ..

ولقد نوه الله تعالى عن جمال الثدى فى قرآنه الكريم بقوله : ﴿ إن للمتقين مفازًا ، حدائق وأعنابًا ، وكواعب أترابًا ، وكأسًا دهاقًا ﴾[1] .

وكواعب أترابًا :صفة من صفات الجمال التى يصف بها سبحانه وتعالى « الأبكار » ، ومعناها « الكواعب » النواهد . أى أن ثديهن نواهد لم يتدلين لأنهن أبكار ، عرب أتراب أى فى سن واحد[2]

وقال تعالى : ﴿ إنا أنشأناهن إنشاءً ، فجعلناهن أبكارًا ، عربًا أترابًا ، لأصحاب اليمين ﴾[3] .

والعرب : جمع عروب وهى المتحببة إلى زوجها ، الحسنة البعل ، قال المبرد : هى العاشقة لزوجها . وقال

---

(١) سورة النبأ : الآيات ٣١ / ٣٤ .

(٢) عن « تفسير ابن كثير » الجزء الرابع ، ص ٤٦٥ .

(٣) سورة الواقعة : الآيات ٣٥ / ٣٨ .

ابن عباس : عواشق لأزواجهن ، وأزواجهن لهن عاشقون ، وهذه أروع صفات النساء .

وكان أول من وصف الثدى من الشعراء عمرو بن كلثوم بقوله فى معلقته الخامسة :

وثدى مثل حُق العاج رخصًا
حصانًا من أكف اللامسينا

وأخذ هذا المعنى شاعر آخر فقال :

صدور فوقهن حقاق عاج
ودر زانه حسن اتساق
يقول الناظرون إذا رأوه
أهذا الحلى من هذى الحقاق
نواهد لايعدّ لهن عيب
سوى منع الحبيب من العناق

ويقول الإمام ابن حبيب الحلبى المتوفى سنة ٧٧٩ فى كتابه « نسيم الصبا » :

« ونهود كالعاج ، ملتحفة بمروط الديباج ، رفيعة المنار ، شغلت الحلى أن يعار . إن ثنيتها لم تجد عندها عطفًا لمرتاح

وإن لثمتها نشقت من الرمان عرف التفاح .

كحقين من لب كافورة
برأسيهما نقطتا عنبر »

وقال أحدهم : « أبغى امرأة مديدة فرعاء ، جعدة (كريمة) تقوم فلا يصيب قميصها منها إلّا مشاشة منكبيها وحلمتي ثدييها . ورانفتي إليتيها » .

ويقول واحد من شعراء العصر العباسي :

أبت الروادف والثدى لقمصها
مسّ البطون وأن تمس ظهورا
وإذا الرياح مع العشى تناوحت
نبهن حاسدة وهجن غيورا

وقال آخر :

إذا انبطحت فوق الأثافى رفعنها
بثديين فى نحر عريض وكعنب

وكتب الحجاج إلى أيوب بن القرية ، أن أخطب على عبد الملك بن الحجاج امرأة ، جميلة من بعيد ، مليحة من

قريب ، شريفة فى قومها ، ذليلة فى نفسها ، مواتية لبعلها . فكتب إليه : قد أصبتها لولا عظم ثديها . فكتب إليه : لايكمل حسن المرأة حتى يعظم ثدياها ، فتدفئ الضجيع ، وتروى الرضيع[1] .

وقال أبو العباس أمير المؤمنين لخالد بن صفوان : ياخالد ، إن الناس قد أكثروا فى النساء فأيهن أعجب إليك ؟ .. قال : أعجبهن يا أمير المؤمنين التى ليست بالضرع الصغيرة ولا الفاتية الكبيرة . وحسبك من جمالها أن تكون فخمة من بعيد ، مليحة من قريب ، أعلاها قضيب وأسفلها كثيب[2] .

وكانوا لذلك يستملحون ضخامة الثدى . يقول الحجاج : لايحسن نحر المرأة حتى يعظم ثدياها .. ويقول المرار العدوى :

صلتــه الخــد طــويـل جيــدهــا
ضخمــة الثــدى ولمــا ينـكسـر

(١) « العقد الفريد » الجزء الثالث ، ص ٢٣٤ الطبعة الأولى ١٣٢١ هـ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٣٤ .

هذا هو الحديث الذى تفجره النهود فى صدور الناس ، فيصاعد إلى الشفاه ، ويتناثر ورودًا من الكلمات مفتحة ، فوارة بدماء الشباب . أو آهات ملهوفة ظامئة ، أو زفرات ، أو حسرات مكبوتة تواريها تعويذات تصارع مشاهد لاتقوى عليها التعويذات والتمائم .

وتلك هى النهود .. سيان احتجابها وظهورها . إن اتخذت من اللباس متاريس كان عدوانها شديدًا ، وإن أسفرت عن محياها كان تحديها أشد وأبلغ أثرًا – وللنهود ألف حديث وحديث :

وحـــديث فى النهـــد إن لم نقله
أوشــك الصدر حــولنا أن يقــوله

الجمال .. والرجال

كان يمكن أن يسود جمال الرجل إحساسنا بالجمال ، لو سادت المعايير والنزعات الإغريقية ، فالصداقة فى اليونان كانت تتحكم بالحب ، وكان مثال الجمال فى إسبرطة وأثينا هو الشباب الممتلئ بالرجولة ، الذى يجمع بين الجمال والشجاعة . ولذلك أضحى الفن الإغريقى تمجيدا للرجل الكامل ، ويعكس الميادين الرياضية ، على حين يعكس إحساسنا بالجمال مخدع المرأة وسلطانها فى قلوبنا وحياتنا . وإذا كان جمال الرجل لايزال يحركنا فى بعض الأحيان ، فالعلة فى ذلك العنصر من عناصر الحب الذى قد يرتفع إلى حد الشغف والإخلاص فى الصداقة ، كما كانت الحال عند الإغريق[1] .

---

(١) راجع كتاب « مباهج الفلسفة » تأليف ول ديورانت ، ترجمة الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى ، الكتاب الأول ، صفحة ٢٩١ ، مؤسسة فرانكلين ١٩٥٧ .

وتصبح المرأة منبع الجمال ومعياره ، لأن حب الرجل إياها أقوى ولو أنه أقصر من حبها إياه ، وتخلق شدة رغبته ملاحتها الفائقة . وتسلم المرأة بحكم الرجل عليها أنها أجمل منه . إذ مادامت تهوى أن تكون معشوقة أكثر من حبها التملك ، فهى تتعلم أن تقدر فى نفسها تلك المفاتن التى تقوى الرغبة . وفيما عدا ذلك ، لاتنشد المرأة الجمال فى الرجل ، وليست فى حاجة إلى تخيله فيمن تهواه . إنها تلتمس فيه القوة . والقدرة على أن يضع تحت أقدامها ما استطاع من كنوز العالم .

* * *

يقول برنارد شو الكاتب الأيرلندى الكبير : « إن الرجال يجرون وراء النساء ، وللرجال مايلهيهم عن النساء . أما النساء فليس لديهن مايحولهن عن الرجال » .

والأحرى أن تنقلب الآية ، وتجرى النساء وراء الرجال ، إذا عرفنا أن هناك رجالاً أكثر جمالاً من النساء . ولما كان الجمال من حيث هو محببًا للنفس معظمًا فى القلب ، لم يبعث الله نبيًّا إلا جميل الوجه كريم الحسب ، شريف النسب ، حسن الصوت . وكان سيدنا يوسف الصديق

مثالاً لذلك الحسن النادر والجمال الفائق ، مما جعل امرأة العزيز تهيم به وجدًا . ويشق شغاف قلبها حبًّا حتى وصل إلى فؤادها .. ﴿ وقال نسوة فى المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حبًّا إنا لنراها فى ضلال مبين . فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن وأعتدت لهن متكأً وآتت كل واحدة منهن سكينًا وقالت اخرج عليهن فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاش لله ماهذا بشرًا إن هذا إلّا ملك كريم ﴾ صدق الله العظيم .

وكان نبينا ورسولنا محمد صلى الله عليه وسلم من الحسن فى الذروة العليا ، ومن الجمال فى المرتبة القصوى . ولقد أفردنا لصفاته فصلًا خاصًّا .

ويقول خالد بن صفوان لامرأته وقد قالت له : ماأجملك ! .. أتقولين لى ذلك ومالى عمود الجمال ، ولا علىّ رداؤه ولابرنسه ؟ .

قالت : ماعمود الجمال ، وما رداؤه ومابرنسه ؟ قال : « أما عمود الجمال فطول القوام ، وفىّ قصر ، وأما رداؤه فالبياض ، ولست بأبيض ، وأما برنسه فسواد الشعر ، وأنا أصلع . ولكن لو قلت : ما أحلاك وما أملحك لكان

أولى »[1] . وهو بذلك لايفرق بين الجمال والحسن . ولكن يفرق بينهما وبين الملاحة .

فهناك إذن فرق بين الجمال والملاحة . ذاك لايحوزه إلّا رجل معتدل القوام ، متناسب التقاسيم ، وفيه مع ذلك شيء من الفتنة . أما الملاحة فتوجد حتى فى الرجل القبيح الوجه مادام خفيف الروح رشيق الحركة .

ومما تجب الإشارة إليه : أن الجمال[2] ضده الدمامة ، وأن الحسن ضده القبح ، والناس يخطئون فى ذلك كثيرا كقول بعض المحدثين :

وجهه غاية الجمال ولكن
فعله غاية لكل قبيح

جعل القبح ضدا للجمال ، وهو ضد الحسن . ولقد جاء فى سورة التين قوله تعالى ﴿ لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ﴾ .

والجمال مقترن بالخير ، والقبح مقترن بالشر . إذ

---

(١) « عيون الأخبار » جزء رابع ص ٢٣ .
(٢) « العمدة » لابن رشيق جزء ثان ص ١١ .

لايمكن وصف مكارم الأخلاق بالقبح ، بل لابد أن يوصف الخلق الكريم بأنه جميل ، والشعور بالجمال يؤدى إلى الخير .

وعلى هذا المبدأ كان الاخلاقيون من العرب ينصحون باستخدام ذوى الوجوه الحسنة لأن حسن وجوههم دليل حسن نفوسهم . وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ يقول : « اطلبوا الخير من حسان الوجوه » .

ومن مقاصد الزوج فى الزوجة الجمال ، والبكارة : فالميل إلى الجمال أمر طبيعى ، والائتناس به والارتياح إليه عادة فطرية .

إذا الحاجات آدت فاطلبوها
إلى من وجهه حسن جميل[1]

وقد قال صلى الله عليه وسلم : « خير النساء من تسرّ إذا نظر وتطيع إذا أمر ، ولاتخالفه فى نفسها ومالها » .. والجمال يختلف فى نظر الناس ، فرب جمال عند البعض هو

---

(١) آدت : (بالمد) أى أثقلت . وفى المختار (آده) الحمل : أثقله .. وفى الآية الكريمة ﴿ ولا يئوده حفظهما ﴾ أى لا يثقله .

دمامة عند الآخرين .

ولعل فى هذه الحكاية الظريفة التى يرويها « النويرى » فى كتابه « نهاية الأرب » عن رجل من أهل المدينة - مايصور لنا مبلغ اختلاف الأذواق فى هذا الشأن . قال : كنت يومًا فى مجلس رجل من قريش ومعنا قينة ظريفة حسنة الصورة ، ومعنا فتى من أقبح مارأته العين ، والقينة مقبلة عليه بحديثها وغنائها . فبينما نحن كذلك إذ دخل علينا فتى من أحسن الناس وجهًا وأثراهم ثوبًا . وأطيبهم رائحة ، فأقبل على صاحب البيت فقال : إن فى أمر هذين لعجبًا ! .. قلت : وماذاك ؟ . قال : هذه الجارية تحب هذا (يعنى القبيح الوجه) ، وليس لها فى قلبه محبة ، وهذا الحسن الوجه يحبها . وليس له فى قلبها محبة . وبينما نحن على شرابنا إذ سر الفتى الحسن فتغنى قائلا :

بيد الذى شغف الفؤاد به
فرج الذى ألقى من السقم
فاستيقنى أن قد كلفت بكم
ثم افعلى ماشئت من علم

فأقبلت القينة عليه وقالت : قد علمنا ذاك ، فمه[1] . ثم تركته وأقبلت على القبيح ، فلبثا ساعة ، ثم تغنى الفتى الحسن بقول جميل عذرى :

ألا ليتنى أعمى أصم تقودنى
بثينة لايخفى علىّ كلامها

فقالت القينة: اللهم اعط عبدك ماسأل. فغاظتنى، فقلت لها : يافاجرة ، تختارين هذا وهو أقبح من ذنوب المصرّين ، على هذا الذى هو أحسن من توبة التائبين ؟ .. فقالت : ليس الهوى بالاختيار ، ثم أنشأت تغنى وتقول :

فلا تلم المحب على هواه
فكل متيم كلف عميد
يظن حبيبه حسنا جميلا
وإن كان الحبيب من القرود

فقلت : أجل ، إنه لكما قلت ، وليس فى هذا حيلة . وذكرت قول ابن أبى ربيعة :

---

(١) مَهْ : مبنى على السكون ، اسم لفعل الأمر ومعناه اكفف ، فإن وَصَلْتَ نَوَّنت فقلت : مَهٍ مَهْ « مختار الصحاح » .

فتضاحكن وقد قلن لنا
حسن فى كل عين من تود[1]

والأدب العربى يمتاز بنثريات جزئية ، وعبارات فردية ، وأجوبة رائعة قوية ، تسمو إلى قمة البلاغة العربية . إيجاز لفظ . وشرف معنى ، ومما يناسب هذا المقام من هذه الجزئيات السديدة ، والأجوبة المقنعة الرشيدة ، جواب زوجة عمران بن حطان السدوسى كان شاعر الخوارج ، وكان فصيحا قبيح الشكل ، وكانت زوجته هذه جميلة ، فدخل عليها يومًا وهى بزينتها ، فأعجبته وعلمت منه ذلك ، فقالت له : أبشر فإنى وإياك فى الجنة . فقال : ومن أين علمت ذلك ؟ قالت : لأنك أعطيت مثلى فشكرت ، وأنا ابتليت بمثلك فصبرت . والصابر والشاكر فى الجنة .

على أنه من الإنصاف للأقدمين ، أن نذكر أنه قد وردت لهم أقوال تؤيد ماذهبنا إليه ، من أن الجمال لايمكن حصره فى نطاق ولاتحديده بحدود معينة . وأنه ليس وقفًا على النساء دون الرجال . وفى ذلك يقول أفلاطون : « الجمال

(١) عن « نهاية الأرب » جزء ثان ، صفحة ١٢٦ .

الحقيقى إنما هو عامل غير محسوس ، هو كامن فى نفس الشخص ، فى السيال الروحى الذى ينبثق من ملامحه ، لأن الشخصية تنفخ فى الملامح روحها وتجعلها ذات معنى وتأثير فى النفس » .

ويقول أيضا : « الحسن ضياء الحق ، وامتياز تمنحه الطبيعة »

وقد ذكر فى تاريخ الإغريق أن القيبياد كان أجمل فتيان الاغريق ، وقد عاش فى القرن الخامس قبل الميلاد ، وكان سقراط يعجب بجماله وينوه به ، وقد توّجه الإغريق بالبنفسج لفرط إعجابهم به .

وكان الامبراطور فردريك الثانى الذى عاش فى القرن الثانى عشر من أجمل ملوك العالم . وكان يجمع إلى جماله ذكاءً نادرًا ، ومتبحرًا فى العلوم الشائعة فى زمنه ، وكان لايؤمن بالعقائد الدينية التى كان يؤمن بها معاصروه ، وقد اشتجر الخلاف بينه وبين بعضهم وبقى مدة طويلة .

وأجمل من ذكر من الشعراء هو بيرون الشاعر الإنجليزى وقد رآه مرة أحد الأتراك فحكم لأول رؤيته أنه من الأشراف، وأن تقاسيم وجهه لايمكن وجودها بين العامة.

وكان ملتون الشاعر الإنجليزى أيضًا أجمل من النساء وجهًا .

ولكم أرتنا « ولّادة » من شعرها سحرًا ومن كلامها درًّا ، حيث كانت تخاطب ابن زيدون بقولها :

ترقب إذا جنّ الظلام زيارتى
فإنى رأيت الليل أكتم للسر
ولى منك مالو كان بالبدر لم ينر
وبالليل لم يظلم وبالنجم لم يسر

وفى موقف آخر وهى تقول :

لحاظكم تجرحنا فى الحشا
ولحظنا يجرحكم فى الخدود
جُرحٌ بجرح فاجعلوا ذا بذا
فما الذى أوجب جرح الصدود

ومن المعروف أن الوجه مرآة النفس ، فإذا كانت النفس جميلة كان الوجه جميلًا . والعكس بالعكس .. ولذلك كان سقراط يقول : « اللهم ضع الجمال فى نفسى » .

جمال غير مجرى التاريخ

من الحقائق الثابتة - منذ بدء الخليقة - أن للجمال أثرًا فعالاً فى اتجاه الإنسانية ، نحو السعادة والهناءة . وأن المرأة الجميلة كانت - ولاتزال - تبتسم لها الدنيا ، وتطأطئ لها الأعناق ، وتفتن العقول والألباب ، وكأنى بها أمسكت مفاتيح السعادة بيمينها ، ومفاتيح القلوب بيسارها . ولقد كان لبعض هؤلاء النسوة أثر كبير فى تحويل دفة التاريخ . وفيما يلى بعض الأمثلة نضربها على هذه الحقيقة التى تؤكد لنا مافعلته الخدود التى حوت ورود الرياض ، والظباء التى تحاكى فى امتشاق قدودها عيدان الخيزران ، والعيون الساحرة المستبدة بقلوب الملوك والقياصرة ، من آثار الحروب . وتحطيم العروش وإطاحة التيجان :

العلوى وامرأة حسناء :

حكى بعض الأدباء قال : حاصر العلوى مدينة دمشق وأشرف على تملكها ، وكان فيها امرأة مشهورة بالحسن فقالت لأهل المدينة : أنا أكفيكموه ، وخرجت وطلبت مقابلته فلما حضرت بين يديه قالت : ألست القائل :

نحن قوم تذيبنا الأعين النجـ
ـل على أننا نذيب الحديدا
طوع أيدى الغرام تقتادنا الغـ
ـيد ونقتاد فى الطعان الأسودا
فترانا يوم الكريهة أحرا
راً وفى السلم للحسان عبيدا

قال : بلى .. فألقت البرقع عن وجهها وقالت له : أحسنًا ترى أم قبحًا ؟ .. قال : بل حسنًا .. قالت : إن كنت عبدًا للحسان فاسمع وأطع وارتحل عنا . فنادى فى جيشه بالرحيل ، فقال نقباء عسكره : البلد بأيدينا وقد أشرفنا على فتحه . فقال : لاسبيل إلى الإقامة عليه ساعة واحدة . وخطب المرأة وتزوجها .

***

ويروى لنا التاريخ أن « حنة » الفاتنة السويسرية ربيبة حصن النسور استطاعت بجمالها الفاتن وحيلتها الواسعة أن تعيد هنرى السابع ملك إنجلترا إلى عرش آبائه وأجداده .

وكانت الجارية « دربالا » التى اشتراها الأمير بيكار موسكاو أحد أثرياء ألمانيا بمائة محبوب عثمانى (٧٠ جنيهًا مصريًّا) على عهد محمد على باشا من سوق العبيد بدرب سعادة بباب اللوق بالقاهرة - جميلة فتانة - فوقع فى شركها ، واشترى لها ضيعة خاصة . ظلت مضرب الأمثال فى ألمانيا ، مما دعا ملك مصر وقتذاك - أحمد فؤاد الأول - إلى زيارتها فى رحلته إلى أوربا .

وشجرة الدر الجارية التركية التى بيعت كالسلعة ، قد وصلت إلى درجة الملوك بجمالها .

وجوزفين قد أخضعت بجمالها ذلك القائد العظيم والبطل المغوار الذى دوخ العالم أجمع ببطولته وفروسيته ألا وهو نابليون بونابرت .

تيريزيا تاليان :

وكم من حادثات مروعة طمس النسيان بأقدامه الهائلة ، معالمها ورسومها ، وطواها الزمن فى جوفه المظلم .. ومن تلك الحادثات ، قصة « تيريزيا تاليان » .. تلك المرأة التى كان جمالها الرائع حسامًا تقوضت دعائم حكم الإرهاب فى إبان الثورة الفرنسية بضربة منه .

وإنه لمما يثير العجب فى النفوس أن تكون قصة ذات فروسية حادة مثل قصة « مدام تاليان » شيئا تافها غير ذى قيمة ، وهى التى يجب أن تكون مضغة يلوكها فم الزمن فى كل آن !

وفى الحق أن « تيريزيا تاليان » لم تكن إلّا ندًّا مماثلاً (لهيلانة) ، التى حدثنا عنها الشاعر الإغريقى (هوميروس) وهى التى أثارت بجمالها الفاتن الخلاب حرب (طروادة) . ولكليوباترا الملكة التى جلست على عرش البطالسة فى الاسكندرية ، وجردت من غنج لحاظها خنجرًا طعنت به قلب عاهل الرومان ، فقوضت دعائم ملكه الكبير الذى كان مشمخرًّا يطاول أبراج السماء .

فى إبان عيد الميلاد من عام ١٧٩٣ م ، كانت سجون (بوردو) غاصة بالأسرى المقبوض عليهم إلى أن تفصل المقصلة فى مصيرهم .. وكانت هناك ضمن أولئك الأسرى فتاة تبلغ من العمر عشرين ربيعًا ، هى (مدام تاليان) التى كانت منذ أعوام نغمة بين شفتى أهل (باريس) ، وحاكمة مطلقة تجلس على عرش الجمال . وكان صالونها مناط آمال العشاق ، ومحراب المتعبدين والمتبتلين .

تزوجت (تيريزيا) فى السادسة عشرة من عمرها من (المركيز دى فونتناى) ، وهو فتى ماكر وجبان جاء بها إلى (بوردو) هاربًا من جو باريس الخانق المكفهر بسحب الذعر والهلع . بيد أنه وجد جو (بوردو) أكثر اكفهرارًا من جو باريس ، ففر توًّا تحت جنح الظلام تاركًا وراءه زوجته لتواجه بمفردها الشياطين والمردة الذين كانوا يلوحون بسيوف الرعب فى أفق فرنسا فى عهد حكومة الإرهاب .

وكانت التهمة الموجهة إليها ، هى أنها من الاشراف وأنها فرع من فروع دوحة النبل ، التى كان أساطين حكومة الإرهاب يعملون ليل نهار فى سبيل اجتثاث

جذورها من أصلها العميق . فقبض عليها وزجت فى السجن . وهناك خلف القضبان جلست وحيدة تبكى وتنتحب .

وفى تلك البيئة المرعبة التى كانت مغمورة فى صميمها ، صح منها العزم أن تبرهن على قوة سحر جمالها الفاتن . فرفعت التماسًا إلى زعيم الإرهاب فى المدينة . وفى صبيحة اليوم التالى ، وفى السجن المظلم ، فتح باب غرفتها الضيقة على مصراعيه ، وكان الزعيم نفسه يخطو فيها إلى الداخل بخطوات واسعة . وكان اسم ذلك الزعيم (جان لامبير تاليان) ، أكثر عماليق فصيلته سوادًا وأكثرها رعبًا . فإنه ما كاد يعين فى (بوردو) حتى بادر إلى إقامة المقصلة أمام منزله حتى يستطيع أن يشرف من النافذة على عمل الفأس فى الرقاب طوال اليوم .

ولقد نشأ (تاليان) من صميم الشعب ، فهو ابن خادم ، وقد درج منذ نعومة أظفاره فى الملاجئ وبيوت الإحسان ، ثم اشتغل فى أعمال حقيرة ، حتى صار أخيرًا زعيمًا لحكومة الإرهاب فى (بوردو) وكانت قوة الموت والحياة كامنة بين يديه . وكانت حياة تلك المخلوقة

الساحرة التي واجهته فى غرفة السجن الضيقة وهى ترتجف فرقًا كالقصبة أمام الزوبعة ، تتوقف على مجرد كلمة تصدر منه . وفى الحق ما كان لها أن ينتابها الهلع وفى عينيها ذلك السحر الذى يذيب أشد القلوب صلابة . ما كان لها أن ترتجف وحسام لحظها قاطع فى غمده . فإن الرجل ما كاد ينظر إلى الفتاة وهى فى حلة جمالها القشيب حتى خلبت لبه ، فتغير فى لحظة ، حيث انتشله الجمال الرائع من مشاغله المرعبة ، عندما وقفت أمامه تلك الحسناء فى غرفة السجن الضيقة ، منتصبة كعمود النور ، تنشد على مسمعه أول بيت من قصيدة الحياة المعنوية .

شعر لأول مرة عندما رآها أن تيارًا كهربيًّا يهز كيانه بقسوة وبعنف وبقوة تكاد تحاكى قوة الموت .

وقف أمامها ذليلًا كالوحش الكاسر أمام الجمال ، وكالليث الهصور عند قدمى أليفته ، وبمعجزة من معجزات السماء خضع ذلك العملاق الجبار ذليلًا أمام جبروت الحب وطاغوت الجمال فأصدر أمرًا بفك قيود الفتاة . فانطلقت ترتع فى بحبوحة حريتها الواسعة .. المطلقة .

وفى اليوم التالى خاضت غمرة الجهاد فى سبيل حرية

الشعب وصاحت مع الصائحين : « ليحيى الشعب .. لتحيى الحرية » . وجعلت تطوف المدينة فى عربة وهى ترتدى ثوب إلهة الحرية ، وعلى رأسها قلنسوة حمراء ، وتصيح : ليحيى الشعب ، لتحيى الحرية » . وكانت فى مظهرها أكثر جمالاً من إلهة . كانت ملاكًا علويا هبط من رياض الفردوس ، وراح يسير بين الناس فى لحم ودم .

وما كان يستطيع (جان لامبير تاليان) أن يرفض لها شيئًا ترغب فيه . وبكلمة منها تحوّل الشيطان المريد ، إلى محب ذى قلب خفاق يرى النعيم كل النعيم فى أن يكون معبودًا للشعب تركب إلى جانبه (مدام تاليان) ، فيخترقان صفوف الرايات التى لا نهاية لها ، وسيول الورود والرياحين والأزهار تنهمر فوق رأسيهما .

وعندما زف كلاهما إلى الآخر ، واستعادت تيريزيا مجدها كملكة من ملكات الجمال ، أسدل الستار على ذلك الحكم التعسفى المرهق - حكم الإرهاب .

ولئن كانت طلعة « هيلانة » الإغريقية سببًا فى إنزال ألف مركب حربى ملىء بالذخائر والجنود إلى الماء ، فإن طلقة « تيريزيا تاليان » هى التى أوحت بإجراء ذلك العمل

الجليل الذى ألبس فرنسا ثوب الحرية . فقد كان خنجر عشيقها هو الذى طعن الإرهاب فى شخص « روبسپيير » .

ليس ينكر أحد أن : « تاليان » كان شيطانًا ، بيد أن حبًّا عظيمًا قد فدى اسمه .. لقد أحب حسناءه « تيريزيا » حبًّا وسم به اسمه على مدى الأجيال .

الإحساس بالجمال فى الفلسفة الهندية

ليس من شك فى أن جهود الفيلسوف رابندرانات طاغور ، جديرة بالإعجاب لابتداعه منهجًا طريفًا خاصًا يجمع فيه إلى تربية النفس والعمل على تنقيتها من الأدران ، تثقيف العقل ، وتنوير الأذهان ، وتعليم الراغبين مناهج الحياة العملية الحديثة .. كما أن له فى مجال فلسفة الجمال جولات جميلات - إن صح هذا التعبير - فقد كتب فى هذا الموضوع ضمن ما كتب ، بحثًا رائعًا بعنوان « الإحساس بالجمال » ، ومنه يظهر مبلغ علمه بمعرفة أسرار الحياة ، وإيضاح روعة الجمال .. رأينا أن ننقله عن الإنجليزية فيما يلى لما فيه من فائدة ومتعة :

إن الأمور أو الأشياء التى لا تبعث السرور فى نفوسنا ، لا تخرج عن أن تكون إمّا عبئًا ثقيلًا ، نرى لزامًا علينا أن نطرحه عن كاهلنا ، وإمّا أن تكون نافعة مفيدة لاتصال بعض أسباب حياتنا بها من بعض النواحى اتصالًا وثيقًا .

وهذه بدورها يستثقلها الطبع حينما تزول فوائدها ويبطل نفعها . ومثلها كمثل الفكرة الهائمة تخطُر هنيهة ، وتتسكع في رحاب الفكر ، ثم تتوارى عن صفحة المخيلة وتصبح نسيًا منسيًّا .. فالشيء لا تتعلق به نفوسنا ، ولا تهفو إليه أرواحنا ، إلاّ إذا أضفى إليها البهجة وأسبغ عليها السرور .

إننا لا نعنى بكثير مما يحتويه هذا العالم الكبير ، ولا نعيره اهتمامًا ، في حين أنه لا ينبغى لنا أن ننزله هذه المنزلة فنقف في اعتباره عند هذا الحد ، وضمن هذا النطاق ، لأن في ذلك تحقيرًا للنفس الإنسانية ، وتهوينًا من شأنها . فالعالم كله ملك لنا ، ومنحة وهبها الله لنا ، وأودع فينا ، وفي كل قوة من قوانا خصائص تجعلنا قادرين على أن نأخذ قسطنا من هذه المنحة وحظنا من ذلك الميراث .

ولكن ، ما هي وظيفة حاسة الجمال فينا إزاء عملية التوسيع في نطاق المدارك وحدود الأفهام ؟ هل هي مودعة فينا لتقسم الحقائق إلى أنوار ساطعة وظلمات داكنة ، كيما تبرزها أمامنا وتدفعها إلينا في أشكال أو مظاهر سطحية تنم عن قبح وجمال ؟.. إذا كان هذا ما أريد بها وما عنى من

جودها ، فلابد إذن من التسليم بأن الشعور بالجمال
- حاسة الجمال - يوجد اختلافًا فى الكون ، ويقيم سدًّا
نيعًا فى وجه المحاولات التى من شأنها أن تربط كل كائن
رد بالأشياء كلها .

على أن ما تقدم لا يصح ولا يمكن أن يصح. إذ
لا مندوحة من بقاء الحواجز قائمة بين الأشياء المعلومة
والأخرى المجهولة . بين الأشياء السارة والسيئة ، طالما
بقى النقص فى شعورنا ، وما دامت قوة اكتناهنا دون حد
الكمال . وبالرغم مما يذهب إليه بعض الفلاسفة ويقرره
تقريرًا ، فإن الإنسان لا يعترف بوجود حدود ثابتة تحدد
عالم معرفته ، بدون أن يستطيع اجتيازها . فليس ثمة
ما يمنعه أو يصده عن أن يلمّ بكشفه ومعرفته بما كان خارجًا
عن دائرة هذه المعرفة . وكل يوم تتطرق علومه إلى قلب
منطقة جديدة ، وتنفذ متخطية مجاهل كان مرقومًا على
مكانها من خريطة فهمه ، أن لا سبيل إلى اكتشافها ، وأنها
فى عماء العدم .

وكذلك الحال فى حاسة الجمال، فهى تنطوى على قوة
دافعة لا تنى أبدًا عن دفعها إلى مجالى النصر إثر كل فتح

جليل . والحقائق مبثوثة حيثما يممت ، موجودة فى كل مكان . ولذلك فإن الأشياء كلها تنتظر منا أن نكشف عنها ونعنى بمعرفتها . فهى هدف استقصاءاتنا . وبعبارة أخرى نقول إن الأشياء كلها على الإطلاق جديرة باستثارة فضولنا . وانطواؤها على الحقائق يستفز هوى العلم فينا وحب الإحاطة .. والجمال أصل كلى منتشر فى كل شىء ، كائن فى كل مكان . وهذا يكفى للتدليل على أن الأشياء قاطبة لديها القابلية على إدخال السرور إلى نفوسنا ، وخصائص التسرب إلى قلوبنا بالمرح والبهجة .

لقد كان الإنسان فى العصور الأولى من التاريخ ، يعتبر الأشياء مظاهر حية فى الكون . ويرى فى كل كائن موجود ظاهرة من ظواهر الحياة ، ومن هنا يمكن أن نقول إن علم الحياة – علم الإنسان بالحياة – استهل نفسه بوضع حد فاصل بين الحى من الكائنات وغير الحى . بيد أنه بتدرج هذا العلم فى مراتب التقدم أخذت الفوارق ما بين الحيوان والجماد تتضاءل وتنكمش شيئًا فشيئًا بنسبة عكسية مطردة مع ذلك الترقى. وكان لا غنى لنا فى بداية الإدراك عن الاهتداء بهدى تلك الفوارق ، والسير على بصيص من

ضوئها . على أنها تضمحل كما قلنا ، ويتقلص ظلها بالتدريج كلما كانت نظرتنا أشمل ، وفهمنا أعم ، وكلما أمعنا فى الإحاطة والشمول .

ذهب اليوبانيشيون The Upanishads ، إلى أن عنصر الفرح الأسمى قد أودع فى الكائنات وفى الأشياء كلها منذ خلقها وإبداعها. فهى منطوية بأعماقها عليه . ومزودة بمادته الأبدية . وهذا العنصر هو الهيولى ، وهو بمثابة المبدع الخلاق للأشياء بأسرها ، وهو الذى يضمن استمرارها فى عالم الوجود ، ويكفل سلامتها على مرّ الدهور . فلكى نتفهم هذا المذهب فى أصل الخليقة ، يجب أن نشرع فى التقسيم وإطلاق « الجميل » و « القبيح » على الأشياء . فتتجلى لنا إذ ذاك حقيقة الجمال من نفسها .. وتفاجئنا بوميض يوقد جذوة المعرفة ، وصدمة توقظها من سباتها العميق ، ورقدتها الأزلية . وهكذا كان لزامًا أن تقرر حقيقة الجمال نفسها عن طريق حلولها فى الأضداد ، وظهورها فى مظاهر مختلفة متباينة .. وإذن فإن أول تعرفنا إلى الجمال كان وهو فى ثوب مختلف الألوان ، تزدهينا فيه شتى التحسينات ، ويستهوينا سنه وشيه

ورواؤه . أما الجمال المجرد أو حقيقته العارية ، فذلك ما لم نكن لنبلغ إليه لأول عهدنا بالجمال . وكلما أمعنا فى صحبته وتم تعرفنا إليه عاد التباين فى مظاهره اتفاقًا ، واستحال التضاد إلى انسجام ، وتجلت لنا وحدة جامعة بين ضروب ألحانه فى إيقاعه المنسجم المتساوق .

فلننحى الجمال بعيدًا عن تأثيرات ما يحيط به ، ولنتصوره منعزلاً عما حوله ، مجردًا عما عداه . إننا لا نلبث بعد ذلك أن نلحظ سريانه المتسلسل فى الأشياء كلها ، وانتظامه المطرد إلى جانبها .. إن موسيقى الجمال لم تعد بعد فى حاجة لأن تستفزنا باحتدام ألحانها والجلبة فى أنغامها . فهى بعد تبرأ من كل عنف وصخب ، وتسكن لاجئة إلى نفوسنا ، وتأوى إلى أفئدتنا بحقيقتها البريئة ووداعتها الحالمة التى تسبى العالم بأسره .

ولا شك أن فلسفة الجمال سيأتى عليها حين من الدهر تتحرر فيه وتنطلق من عقالها . وذلك عندما يصبح من السهل المتاح تصور الجمال وتقصى أثره فى الأشياء كلها ، الخطير منها والهين ، وعندما نكون أشد إحساسًا به ، وهو فى اتساقه المتواضع فى الأشياء البسيطة ، منا وهو فى

الأشياء الرائعة بغرابتها ، المفزعة بتفردها وشذوذها - سيأتى على فلسفة الجمال دور استعلاء ، كهذا الدور بالغ حد التناهى ، بحيث تنعكس الآية فنعود إلى تخلفنا ورجعيتنا فى تمثلنا للجمال ، ولكن من وجهة نظر سلبية . فبينما كنا نتمثل الجمال فى الأشياء التى تبهجنا فقط، نرى أنفسنا ننكص على أعقابنا محاولين إهمال كل ما كان من شأنه ذلك ، ونتحاشى الاهتمام بما قدَّسته الميول وألّهه الإجماع ، كأنما نخشى أن يلم بنا استمرار التأثير ، فيخرجنا فى حكمنا عن جادة الصواب . ففى حال كهذه ، يلقى فى روعنا أن نتحدى العرف مطنبين مغالين فى تقديس بساطة الأشياء العادية ، فنكون بذلك قد أخرجناها عن بساطتها وتوهمناها متفردة فذة شططًا وافتراءً .

ولقد لاحت لنا فى العصر الحاضر بوارق هذا الانتقاض فى فلسفة الجمال ، وبدأنا نتلمس علائم التطور فيها ، مما يدل على أن الإنسان قد اهتدى أخيرًا إلى أن القصور فى الإدراك ، وضيق التصور ، هو الذى جعل من الذوق الإنسانى مسرحًا للشعور بالتضاد ، ومرآة ملونة تلتقط الانعكاسات عارية ، ومن ثم تخلع عليها ألوانًا متناقضة من

قبح وجمال . فإذا ما استطاع الإنسان أن يكتنه الأشياء بصرف النظر عن علاقته بها ، ونفعه الذاتى منها ، ودون أن يتأثر بما يتعاقب على لوحة حسّه ، من لجاجة الغلمة ، وإلحاح التفزز - إذا ما استطاع ذلك ، عندها فقط تتاح له الرؤية الصادقة ، والرأى الأصيل فى الجمال المطلق . وعندها فقط يتبين له أنه لا يلزم الجميل من الأشياء ، ولا يشترط فيه أن يكون نافعًا أو سارًّا . فقد لا يكون كذلك مع احتفاظه بالملاحة والجمال .

حاسة الجمال عند الفلاسفة ورجال الفن

تأثر الناس، فى كل مكان وفى كل زمان ، بلون من
ان الجمال ، وأنفقوا أعمارهم فى طلبه . فالجمال هو
قيمة التى قلما يختلف عليها اثنان .. الفلاسفة وحدهم هم
ذين تحرقوا شوقًا لفهم طبيعته ، والكشف عن سرّ
ته .. والفنان ، كل فنان هو دائمًا الراهب الأول فى
راب الجمال .. يصلى له ، يحرق البخور تعبدًا ، يعطيه
ذوب قلبه فى محاولة لتجسيده فى كلمة أو صورة
نغمة ، بهدف أن يحسّ غيره من المتلقين لفنه ، روعة
أحسّه هو من قيمة الجمال .

ولقد اختلف مفهوم الجمال من حضارة إلى أخرى ،
بيرّت الفنون المزدهرة فى هذه الحضارات عن نماذج ومثل
تباينة للجمال[1] .

---

(١) عن كتاب « فلسفة الجمال » للدكتورة أميرة حلمى مطر : المكتبة
ثقافية رقم ٧٤ ص ٢٢ .

فلسفة الجمال عند هيجل :

أهم فلاسفة علم الجمال المحدثين ، فردريك هيجل الذى ترك لنا كتابًا ضخمًا فى « فلسفة الجمال » ، نشر بعد وفاته فى عام ١٨٣١ يضع فى مقدمته الطويلة قواعد علم الجمال

وهدف علم الجمال – عند هيجل – دراسة الفن والآثار الفنية وفلسفة الفنون الجميلة .

أما فلسفة الجمال عنده ، فتعنى الفن الجميل ، وليس الشىء الجميل . والجمال عنده حدث وفعل ، وليس صفة أو كيف.

ولقد أرضى هيجل ، فى كتابه عن « فلسفة الجمال » تلك الروح الفلسفية العلمية التى كانت سائدة فى عصره ، ووضع فى الحقيقة أسسًا لهذا العلم المعقد العميق .

وهو ، بين الفلاسفة أول من تكلم عن الجمال كوحدة ، بعد أن قضى هذا الجمال أحقابًا طويلة حائرًا بين القيم الأخلاقية والعلم الفلسفى بين أفلاطون وأرسطو والقديس أغسطين[1] .

---

(١) عن مقال للدكتور محمد عنانى عن « فلسفة الجمال عند هيجل » بمجلة الأديب البيروتيه ؛ مايو ١٩٥٠ .

الجمال عند أفلاطون :

أما أفلاطون فهو أول من وضع أساس علم الجمال .. وقد مزج الجمال بالخير فى وحدة رائعة فى مدينته الفاضلة . أو على الأصح جعل الجمال مظهرًا من مظاهر الخير . فمن رأيه أن النفوس الجميلة يجب أن ترتبط بمعنى الخير .. ولا يسلم بأن الشعر والفصاحة لا يقتصران على انبساط الناس ، بل يجب أن تكون أغراضهما أدبية وتميل إلى الجمال المثالى . ويجب ملاشاتهما من الدولة إذا كانت أغراضهما الحض على التهييج والثورة .

ويقول أفلاطون إن للمحبة درجتين ، إحداهما خاصة بالعالم المنظور ، والأخرى بالعالم المعقول .

تتعلق المحبة أولاً بالجمال الحسى ، ثم يلاحظ العقل أن الأشياء المحسوسة هى مظاهر النفس ، فتميل المحبة إلى الجمال الخلقى ، ذلك الجمال الذى تنم عليه الأفعال الحسنة ، والعواطف الكريمة ، والأفكار السامية ، ثم يرتقى العقل من الجمال الخلقى الذى رؤى فى النفس ، إلى الجمال التام الذى يتحد بالخير المطلق ، أى بالله ، فهو

الحد الذى تقف عنده جميع ميولنا ، وتشتاق إليه نفوسنا ولا يمكن للفكر الوصول إلى ذلك الخير الأعظم بغير المحبة ، فيجب على الإنسان أن يقصد الحق والخير بكل نفسه .

وهكذا يلتقى الخير بالجمال ، لنصل إلى النتيجة التى انتهى إليها أفلاطون من أن : « مبدأ الخير يرتد إلى قانون الجمال »[1] .

لقد تردد أفلاطون فى هذه المسألة ولم يعرف بالضبط لمن يركع ، ألحكمة أثينا القوية ، أم لملاحة أفروديت المشرقة ؟.. لعله كان على حق فى تردده ، فالجمال كما رأينا من العسير أن نجعله دعامة الدولة الكاملة وأساسها . ولكن ما فائدة الحكمة إذا لم تجعلنا نحب الجميل ونخلق جمالاً جديدًا أبهى مما تقدمه الطبيعة ؟.. الحكمة وسيلة ، والجمال - فى الجسم والنفس - غاية .. والفن بغير علم فقر ، ولكن علم العلم بغير فن بربرية . بل إن الفلسفة

(١) راجع « مباهج الفلسفة » : ول ديورانت ، ترجمة الدكتور أحمد الأهوانى ، الكتاب الأول ص ٣٠٢ .

الإلهية وسيلة ، إلاّ إذا وسعنا آفاقها لتشمل سائر مهام الحياة المتناسقة وآلاتها وقيمتها . إن الفلسفة إذا لم تحركها ملاحة الجمال فهى غير جديرة بالإنسان[1] .

الجمال عند أرسطو :

والجمال عند أرسطو ، هو التناسب والتماثل والتوافق فى الأشياء ذاتها ، والترتيب العضوى للأجزاء فى كل مترابط . ونحن لا نحس الجمال إلاّ عندما ندرك هذا التناسب ونميزه ، ويكون حاضرًا فى الذهن كالمقياس أو الميزان . وهذا التعريف على الرغم مما ناله من تحوير وتعديل ونقد ، لم يزل يحتفظ بالجوهر البسيط لفكرة الجمال . فكل ما يبدو منسجمًا يبعث على الارتياح والاطمئنان والألفة ، وكلما كانت صورة الشىء منسقة تنسيقًا منسجمًا ، أحرزت الرضاء واقتربت من النفس الإنسانية .

ويذهب أرسطو إلى أن فى كل شىء جميل مادة وصورة .. مادة الشعر : المعانى والألفاظ . وصورته :

(١) المرجع السابق ص ٢٠٣ .

الأوزان ؛ ومادة التصوير : الألوان ، وصورته : التأليف فى انتظام ؛ ومادة الموسيقى : الأصوات والأنغام ، وصورتها : الزمان .

ونظرية أرسطو فى الجمال هى : أن الجميل هو الشيء العظيم ، والمنظم وغاية الفنون الجميلة أن ينقاد الإنسان بواسطة الجميل إلى الخير.

وأما عند كانط وشوبنهور ، فالجمال صفة للشيء الذى يبعث فى أنفسنا اللذة بصرف النظر عن نفعه ، ويحرك فينا ضربًا غير إرادى من التأمل ، ويشيع لونًا من السعادة الخالصة . وفى هذا الإحساس الموضوعى البرىء عن الهوى يوجد - كما يذهب شوبنهور - سر تقدير الجمال والعبقرية الفنية .

ويقول المؤرخ والفيلسوف الأمريكى ول ديورانت ، فى كتابه « قصة الحضارة » ، الذى قام بترجمته الفيلسوف الدكتور زكى نجيب محمود : « إن الجمال هو أية صفة تجعل الشيء أو الشكل ممتعًا لمن يراه . وفى البداية لم يكن الشيء يمتع الناظر إليه لأنه جميل فعلًا ، ولكن الأقرب إلى الصواب أن الرائى يسمى الشيء جميلًا لأنه يمتعه ، وكل

ما من شأنه أن يمتع رغبة عند الإنسان ، يبدو لعينيه جميلاً ، بل وفى منتهى الجمال » .

حقا إن الشىء يكون جميلاً قبل كل شىء لأنه مرغوب فيه .. أو بعبارة سبينوزا : إننا لا نرغب فى الشىء لأنه حسن ، بل نسميه حسناً لأننا نرغب فيه .. وهكذا فنحن لا نرغب فى شىء رغبة أصيلة لأنه جميل ، ولكننا نعتبره جميلاً لأننا نرغب فيه .

واللذة التى يحسّها المرء عن طريق العين أو الأذن تعتبر مصدرًا مشروعًا للرضا بالجمال ، على حين تعتبر الرغبة فى تحقيق اللذة عن طريق الحواس الأخرى ، ضربًا من ضروب الشهوانية .. وتعد حواس اللمس والذوق والشم الحواس الدنيا ، وقد اصطلح على أن استشعار اللذة عن طريق هذه الحواس الثلاث هبوط إلى مرتبة الحيوانية .

ويقول « جوته » : « إن الجميل هو مظهر لقوانين الطبيعة الغامضة علينا والخفية أسرارها . وهذا المظهر يعلن ذاته دائمًا فى شكل جمالى ، وفى هذا الشعور الجمالى الذى يبعثه الغامض والمطلق ، تدريب للنفس على معاناة أنقى

ما بها : الحب الذى تستبقيه ، والخلود الذى يمتلئ به إيمانها ».

ويقول « إمرسون » الكاتب الأمريكى : « إن الجمال هو جمال النفس ، بل هو رمز بعثه الله ليدل على الفضيلة .. وإلّا فإذا صادفت امرأة رقيقة جميلة ، ولكن طباعها فظة شريرة ، ألا تصرخ قائلاً : إن هذا عجيب .. بيت بديع يبهج الناظر طلاء جدرانه وفخم منظره ، تسكنه روح خبيثة » .

وفى هذا المعنى يقول تولستوى : « إن المثل الأعلى للجمال ، هو نفس جميلة فى جسد جميل » .

ويقول « لامرتين » شاعر الحب والجمال : « إذا كان الجمال كما يتخيله البعض فى رشاقة الحسناء ، وملاحة الدمى ، فلا أحق من أن نقول : ضاع الجمال !!.. وإنى أرى حقيقة الجمال فى النفس الشاعرة ، والقلوب الحساسة ، وفى ملاحة الغيد إذا اتفقت النفوس » .

ويقول « ڤيكتور هوجو » شاعر فرنسا الخالد : « الجمال هو قبس من نور الله ، أرسله إلى الأرض ليعلم الناس الحق ، ويهذب نفوسهم ، ويطبع قلوبهم بطابع الحب

والشعور .. من يحب الجمال يرى النور » .
ويقول شكسبير شاعر الإنجليز فى تعريف الجمال :
« .. وليس الجمال فى حاجة إلى تدليل أو تبيان ، ألا تراه يأخذ بمجامع القلوب ويخطف الأبصار ؟.. إن الجمال الصحيح نور، أو قبس من نور الله، وضوء من أضواء الطبيعة».
ويقول « أوسكار وايلد » الكاتب المبدع : « كما أن الجسد يمتص أقذارًا شتى ويحوّلها إلى حركة ونشاط ، وقوام رشيق فى قالب جميل ، وإلى شعر مجعد ، وشفاه ياقوتية ، وعيون ساحرة جميلة ، كذلك النفس تحول ما يكون دنىء المعدن حقيرًا ، إلى خصائص جميلة لتنفع العالم الفكرى ، وإلى عواطف سامية تتصل بالحق والجمال » .
ويقول « لورد بيرون » الشاعر الجميل : « إن المرأة الجميلة تولد الحب فى الرجال ، ولكنها تولد الحقد فى قلوب النساء .. هى جميلة فى عين الرجل ، ولكنها قبيحة بغيضة فى عيون النساء .. ولكن الرجل لا يعبأ ولا يحفل بنظرات الاحتقار التى يصوبونها إليها لأنه عالم أن الحسد هو الذى يدفعهن إلى احتقارها .. والناس بالفطرة غيورون ناقدون » .

ويقول « شيلى » شاعر العاطفة والجمال : « الجمال طريق الحب ، ومهما قالوا عنه أو وصفوه ، ووضعوا له أنظمة ومقاييس ، أو عرفوه بمختلف الأدلة ، فما ذلك إلاّ لعجزهم عن تفهم حقيقته » .

« وليس الجمال تناسب أعضاء الجسم ، ولا حسن ملامح وأسارير ، واعتدال قامة ، وإشراق طلعة ».

ويقول « طاغور » شاعر الهند العظيم : « إن الجمال زهرة يتضوع بالطيب أريجها . ألا ترى أن النظرة إلى امرأة ممشوقة القد ، بارعة الجمال ، تشرح الصدر وتجلو الخاطر وتثلج الفؤاد ، وتحمل النفس على احترامها والإعجاب بها . ولكن ، ماذا ينفع الجمال بلا فضيلة ، تصقل بها الروح الجميلة ؟

« إن الوقت الذى كان يعد فيه جمال المرأة كل ثروتها ، قد محته تطلبات المدنية الحاضرة ، وأصبحت حاجتها لجمال الخلق ، كحاجتها لجمال الخلق » .

وللدكتور محمد ثابت الفندى حديث رائع عن الجمال يقول فيه :[1]

---

(١) عن مجلة « المجلة رقم ١ » العدد الأول ١٩ أكتوبر ١٩٣٦ .

ترى هل يوجد الجمال فى غير النفس التى تذوقه ؟ والفكرة فى غير العقل الذى يدركها ؟ والحزن عند غير المحزون ، واللذة عند غير الملتذ ؟.. والألم عند غير المتألم ؟.. ترى هل توجد أى حالة نفسية من هذه أو غيرها عند غير صاحبها ؟.. ترى هل يمكن أن تنفصل موضوعات الوجدان أو الشعور عن الوجدان والشعور ؟

إن كل ما فى العالم من هذه المعانى إن هو إلا حالة « ذاتية » بحتة ليس لها أى وجود « موضوعى » وإنما نحن نخرجها عن ذواتنا ، ونجعلها أمورًا موضوعية تتصل بها اتصالنا بالأشياء الخارجية البحتة ، ونتحدث عنها كما لو كانت وجودًا منفصلاً عن كياننا النفسى، لأننا نألف التجسم والتشخيص ، وننزع بالطبيعة إلى تلمس الأشياء كلها تحت ضوء « المكان » وفى حدود الامتداد الطويل العريض العميق .

فالجمال إذن حالة نفسية لا صفة موضوعية ، لهذا نختلف جميعًا فى تقدير صورة من الصور الفنية مثلاً ، بل قد يختلف تقدير الفرد الواحد منا لنفس الصورة فى آنين مختلفين ، بل ربما لم يدرك الجمال فى أروع ألوانه إلاّ نذر

يسير جدًّا من الناس.

على أننا إن أردنا أن نصف هذه الحالة وصفًا يؤدى إلى تعريفها وتحديدها ، فإنا نقول إنها تنشأ إذا توفر عنصران : عنصر التناسب ، وعنصر الراحة والاطمئنان .

فأما التناسب فهو أن يحس الإنسان أن الأجزاء المكونة لكل ما قد التأمت فيما بينها التئامًا متناسقًا منسجمًا منتظمًا ، حتى أن بعض هذه الأجزاء ، إذا ركب فى غير هذا الكل ، فإنها تكون سببًا فى تشويهه . مثال ذلك : أجمل فم ، لأجمل حسناء ، إذا تخيلته فى وجه طفل رضيع ، كان ذلك مدعاة إلى الإشفاق .

أما عنصر الراحة فهو أنك تحس أن هذا التناسب يمت إليك بصلة تطمئن بها وترتاح إليها ، ونحن لا نستطيع أن نعدد أنواع الصِّلات كلها ، فهى كثيرة لا تحصى ، ولكننا نستطيع أن نذكر منها مثلاً درجة الثقافة ، والمعرفة بفن من الفنون الجميلة ، وطبيعة الحياة التى يحياها الفرد فى المجتمع ، إلى غير ذلك ..

فى محراب الجمال

ما هو الجمال البشرى ؟

قد يكتب الشعراء والكتاب فى وصفه كثيرًا يحاولون تعريفه ، ولكن لفظه سيظل سرًّا أبديًّا دون تعريف .. والسبب فى ذلك أن فكرة كل إنسان ونظريته نحو الجمال تختلف عن الأخرى .. فهناك من يرى الجمال كما كان يراه رجل الفن قبل مئات ثلاث أو أربع من السنين ممثلاً فى الوداعة ، والسذاجة ، والطهر ، والبراءة .

كما أن هناك من يرى الجمال فى الصمت ، والتفكير ، والهدوء !.. ويراه فى شروق الشمس وغروبها .. ويراه فى أحضان الطبيعة الرحيمة .. ويراه فى حنو الطفل لأمه ، وفى لحن الموسيقى ، وفى بيت الشعر ، وفى تفكير الأحبة وقد اجتمعوا حول الأمل يتهامسون ..

ويراه جاثمًا فى صمت الجبل ، وفى رهبة الخاشعين ، وفى أناشيد المنشدين .. ويراه فى الحنان والرحمة ، ويراه فى دفقة

الشباب ، وفى وقار المشيب .. ويراه فى كل شىء ، وفى كل حقيقة ..

أما الشعراء فإنهم يلجئون إلى الطبيعة يناجون مفاتنها ، ويتعبدون فى محرابها ، ويستلهمون منها العناصر التى تتصل بالجمال . إن روحهم تمتلئ إحساسًا بفتنة الليالى القمراء الصافية الجليلة ، والنجوم الزاهرة الزاهية .. وبجمال الإصباح الرقيقة البطيئة ، والفجر الوليد من الشرق ، والنسيم الرقيق ، وقطرات الندى.

وإنهم ليدركون أن جمال الطبيعة ، هو الجمال الدائم المستمر المتجدد على مدار السنة وتبدل فصولها . ذلك الجمال المعنوى الذى يتجاوب مع أنفسهم فينطقهم بالشعر ، ويتجلى عليهم فنهتز له ونطرب . وهذا ما نراه فى الشعر العربى .

إن الشاعر متى أحب ذلك الجمال فى الكون الجليل الرائع ومزج به نفسه ، صار الجمال ملاذه من ضجة الحياة اليومية ، ومعبده ومدرسته ، وتفجرت فى قلبه ينابيع الأنس والبهجة ، وغدت الساعة التى يعيشها فى الكون ديوان شعره ، ومعبد تأملاته ، واستشعر قلبه السكينة والإيمان ،

وكأن الشمس تشرق لتحييه ، ويطلع البدر ليفرش له نوره على الربى ، وعلى صفحات الماء ، ويسبح الطير ليشجيه ..

ويالسعادته حين يلقى إليه الزهر حديثه، والجدول المترقرق يضفى تدفقه على نفسه طمأنينة السلام ، وصفاء الذهن ، وطهارة الضمير .

وأما الشعور الدينى وما يحسّه الإنسان من لذة وطرب حينما يطوف به طائف الدين ، وتتجلى لنفسه عظمة الخالق ، فهو كثير فى دواوين الشعراء . وذلك النوع من الشعر هو فن جميل وجليل ، نستطيع أن نتعرف به إدراك القوم للجمال النفسي ومثله العليا ، ونستطيع أن نجد فيه الكثير من مظاهر ذلك الجمال الروحى ومفاتنه .

ويحسن بنا هنا أن ننوه بالصور الرائعة من تقديس الجمال الإلهى ، والجمال البشرى ، وجمال الطبيعة التى تزخر بها دواوين الشعراء فى كل الأزمان ، قديمها وحديثها .

يقول مروان بن أبى حفصة :[1]

---

(١) عن « الأغانى » جزء ٩ ص ٧٢ .

طرفتك - زائرة فحيّ خيالها
زهراء تخلط بالجمال دلالها
هل تطمسون من السماء نجومها
بأكفكم أو تسترون هلالها
أو تدفعون مقالة من ربكم
جبريلُ بلّغها النبيَّ فقالها ؟

ويقول فيلسوف بغداد الكبير وشاعرها العبقرى « الزهاوى » يصف (ليلاه) فى قصيدة بارعة تعد من غرر قصائده :[1]

تبسمت لى ليلى فوق شرفتها
كما تبسم فى أفنانه الزهر
لقد كلفت بها سمراء فاتنة
فى جيدها تلع ، فى عينها حور
قدٌّ كما شاءت الأهواء ، معتدل
ما إن يضر به طول ولا قصر
إذا مشت تتثنى عند مشيتها
كما تمايل غصن ناعم خضر

(١) « ديوان الزهاوى » طبع مصر ١٩٢٤ .

ليلى ، لأنت منى نفسى وحاجتها
وأنت وحدك يا ليلى لى الوطر

ويقول الشاعر الجاهلى « امرؤ القيس » عن حبيبته :

وكاف وكفكاف وكفى بكفها
وكاف كفوف الودق من كفها انهمل
حجازية العينين مكية الحشا
عراقية الأطراف رومية الكفل
تهامية الأبدان عبسية اللمى
خزاعية الأسنان درية القبل
ولاعبتها الشطرنج خيلى ترادفت
ورخى عليها دار بالشاة بالعجل
وقد كان لعبى كل دست بقبلة
أقبل ثغرًا كالهلال إذا أفل
فقبلتها تسعًا وتسعين قبلة
وواحدة أيضًا وكنت على عجل
وعانقتها حتى تقطع عقدها
وحتى فصوص الطوق من جيدها انفصل

كـأن فصوص الـطوق لما تنـاثـرت
ضيـاء مصابيـح تطايـرن عن شعـل

إن الجمال على وجه الإجمال : آية تعنو لها الأعناق والرقاب . وتفتتن بها العقول والألباب ، منذ خلق الله العالم وأوجد آدم وحواء .

ويمكن أن نقول أيضًا : إن الجمال هو المثل الأعلى لما أبدعته الطبيعة فى صفحة الكون .. فإذا حدَّثنا رجل الدين عنه قال : إن الجمال رسول الملائكة على الأرض ، وهو توقيع الله على خليقته .. بل إنه من صفات الألوهية .

يقول الفارابى : « المعشوق منا هو الفضيلة والجمال ، وليس العاشق منا هو الجمال والفضيلة » .

ويقول ڤيكتور هوجو : « من يحب الجمال يرى النور »

ويقول تولستوى : « إن المثل الأعلى للجمال هو نفس جميلة فى جسد جميل » .

يالله !!.. أى عين لم يستوقفها حسن ، وأى قلب لم يستأسره جمال ؟

وما دام الجمال من صفات الألوهية ، فلابدع فى أن تتسلط به المرأة على القلوب والنفوس . ولله در الشاعر

الذى ناجى ربه قائلاً :

خلقت الجمال لنا فتنة
وقلت عبادى ألا فاتقون
وأنت جميل تحب الجمال
فكيف عبادك لا يعشقون

ويقول بعضهم : الحسن الصريح ما استنطق الأفواه بالتسبيح ، كأن يقول الرائى : سبحان الله !.. ما شاء الله !.. الله أكبر !.. تبارك الله أحسن الخالقين !.. وقد ألمّ البهاء زهير بهذا المعنى فى قوله :

بهرت محاسنه العقول فما بدا
إلّا وسبح من رآه وكبّرا

وقال آخر :

لما تبدت من الأستار قلت لها
سبحان ، سبحان ربى خالق الصور
قد كنت أحسب أن الشمس واحدة
حتى رأيت لها أختًا من البشر
كأنها هى إلّا أن يفضلها
حسن الدلال وطرف فاتر النظر

ويقول ابن الفارض :

يقولون لى صفها فأنت بوصفها خبير

أجل عندى بأوصافها علم

صفاء ولا ماء ، ولطف ولا هوا ،

ونور ولا نار ، وروح ولا جسم

وللشاعر الأردنى حسنى زيد الكيلانى قصيدة رائعة فى « الجمال » يقول فيها :[1]

قالوا الجمالُ تناسبُ	الأعضاء فى الوجه الجميل
وأقول بل هو بسمةٌ	الله من جيل لجيل
هو ما يَهُبُّ من النسيم	عليك فى ظل الخميل
هو ما ترقرق من شعاع	الشمس فوق السلسبيل
هو فى التنادى والتناجى	والبكاء على الطلول
هو ما نشاهد فى عيون	العاشقين من الذهول
هو ما تحاذره المليحة	من مراقبة العذول
هو نفرة الظبى الأغن	إذا تراءى فى السهول
هو فى الخيالات العذاب	وليس ثمة من وصول

(١) أذيعت من « إذاعة صوت أمريكا » فى ديسمبر ١٩٥٤ .

هو لمحة النجم البعيد إذا تـأهب للرحيـل
هو فى ابتسامات الشروق على فراشـات الحقول
هو بعض أسرار الطبيعة إذ تـدق عن العقول
فـوق البلاغـة والبيان وفـوق تحديـد الميـول

لمحة من الجمال المحمدى

إن الحياة بيت شعر نظمته يد القدرة على سبيل الإبداع الإلهى . وأن روح ذلك الشعر ، إنما هو الجمال المحمدى ، مادام البشر أفضل الأنواع كما أخبر الله عز وجل فى سورة التين : ﴿ لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم[1] ﴾ .

فالإنسان بهذا الاعتبار أجمل مخلوق وأكمله ..

فلا جرم أن الرسول الكريم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، كان بالضرورة من الحسن فى الذروة العليا ، ومن الجمال فى المرتبة القصوى كما يفصح عنه كتاب « الشمائل » للترمذى وغيره . وكان يدعو الناس إلى جمال الباطن والظاهر ويقول : « إن الله جميل يحب الجمال » . فكل جمال بالنسبة إلى بحره بلالة ، وإلى نوره ذبالة .. إن رياض الملك والملكوت بزهر جماله الزاهر

---

(١) سورة التين الآية : ٤ .

مونقة ، وحيا من معالم الجبروت بفيض أنوار سره الباهر متدفقة ..

روى الإمام القرطبي عن مكحول عن عائشة إنها قالت : « كان نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ينتظرون على الباب فخرج يريدهم . وفى الدار ركوة فيها ماء ، فجعل ينظر فى الماء ويسوى لحيته وشعره ، فقلت : يا رسول الله وأنت تفعل هذا ؟ .. قال : نعم ، إذا خرج الرجل إلى إخوانه فليهيئ من نفسه .فإن الله جميل يحب الجمال » .

وكان صلى الله عليه وسلم أحسن الناس وجها ، وأنورهم ، لم يصفه واصف إلاّ شبهه بالقمر ليلة البدر . وكان يرى رضاه وغضبه فى وجهه لصفاء بشرته . وكانوا يقولون هو كما وصفه صاحبه أبو بكر الصديق رضى الله عنه حيث يقول :[1]

أمين مصطفى للخير يدعو كضوء البدر زايله الظلام

---

(١) عن « إحياء علوم الدين » للإمام الغزالى ، جزء ٧ ص ١٣٢٧ طبعة دار الشعب .

ونعته بعضهم ، بأنه مشرب بحمرة ، فقالوا إنما كان المشرب منه بالحمرة ما ظهر للشمس والرياح ، كالوجه والرقبة ، والأزهر الصافى عن الحمرة ما تحت الثياب منه .

وكان عرقه صلى الله عليه وسلم فى وجهه كاللؤلؤ ، أطيب من المسك الأذفر .

يقول الإمام مسلم عن أبي إسحق : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلاً مربوعا بعيد ما بين المنكبين ، عظيم الجمَّة إلى شحمة أذنيه ، عليه حُلة حمراء ما رأيت شيئا قط أحسن منه صلى الله عليه وسلم »[1]

وعن أبي إسحق عن البراء قال : « ما رأيت من ذى لِمَّة أحسن فى حلة حمراء من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، شعره يضرب منكبيه ، بعيد ما بين المنكبين ، ليس بالطويل ولا بالقصير »[2] .

حدّثنا محمد بن جعفر عن شعبة عن سماك بن حرب قال : « سمعت جابر بن سَمُرة قال : كان رسول الله صلى

---

(١) عن « الجامع الصحيح » للإمام مسلم ، الجزء السابع ص ٨٣ .
(٢) عن المرجع السابق ، الجزء السابع ص ٨٣ .

الله عليه وسلم ضليع الفم ، أشكل العين ، منهوس العقبين ، قال : قلت لسماك ما ضليع الفم ؟ قال : عظيم الفم . قال : قلت ما أشكلُ العين ؟ قال : طويل شقّ العين . قال : قلت مامنهوس العقب ؟ قال : قليل لحم العقب »[1] .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم مثلاً أعلى يحتذى ، وقدوة فريدة فى التاريخ يقتدى بها ..

﴿ لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة ﴾[2] .

﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾[3] .

﴿ ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم ﴾[4] .

ولم يترك المسلمون شيئاً من ملامح الرسول الكريم إلاّ سجلوها .

---

(١) عن المرجع السابق ، الجزء السابع ص ٨٤ .
(٢) سورة الأحزاب الآية ٢١ .
(٣) سورة الحشر الآية ٧ . (٤) سورة النساء الآية ٦٩ .

وصفه علي بن أبي طالب بقوله :

« ليس بالطويل ولا بالقصير . ضخم الرأس ، ششن (يميل إلى الغلظة والقصر) الكفين والقدمين ، ضخم الكراديس (رءوس العظام) ، مشرَّبا وجهه بحمرة ، أدعج (شديد السواد) العينين ، سبط الشعر ، سهل الخدين ، كأن عنقه إبريق فضة . وكان واسع الجبين وفي وجهه تدوير ، عظيم الفم ، حسن الثغر ، رائق الثنايا ، في أسنانه تفليج وتفريق ، حلو المنطق ، يتكلم بجوامع الكلم ، لا يضحك إلاّ مبتسماً . إذا جلس مع أصحابه رضي الله عنهم ، فكأنما على رءوسهم الطير ، حسن تواضعهم بين يديه . أزهر اللون ، إذا مشى فكأنما تطوى له الأرض . وفي مشيته لا يلتفت وراءه . وإذا التفت التفت جميعا . حسن الوجه ، حسن الصوت وخاصة بتلاوة القرآن العظيم » .

ووصفت أم معبد عاتكة بنت خويلد الخزاعية الرسول صلى الله عليه وسلم بقولها[1] :

---

(١) عن كتاب « هادي الأرواح » للأستاذ مصطفى محمد الطير : سلسلة مجمع البحوث الإسلامية رقم ٣٣ سنة ١٩٧١ .

« رأيت رجلاً ظاهر الوضاءة (أى ظاهر الحسن) ، بلج الوجه (أى مشرقه) ، حسن الخلق ، لم تعبه ثجلة لم تزر به صعلة ، وسيم ، قسيم ، فى عينه دعج ، وفى شفاره وطف ، وفى صوته صحل ، أحور أكحل أزج قرن ، شديد سواد الشعر ، فى عنقه سطع ، وفى لحيته ثاثة ، إذا صمت فعليه الوقار ، وإذا تكلم سما وعلاه لبهاء ، وكأن منطقه خرزات نظم طوال يتحدرن ، حلو لمنطق . فصل لا نزر ولا هذر ، أجهر الناس وأجمله من عيد ، وأحلاه وأحسنه من قريب ، ربعة لا تشنؤه من لطول ، ولا تقتحمه عين من قصر ، غصن بين غصنين ، بهو أنضر الثلاثة وأحسنهم قدرا ، له رفقاء يحفون به ، إذا قال استمعوا لقوله ، وإذا أمر تبادروا لأمره ، محفود محشود ، لا عابس ولا مفند » .

فقال أبو معبد : هذا والله صاحب قريش لو رأيته لاتبعته .

شرح اللغويات :

الثجلة : عظم البطن .

الصعلة : بفتح العين ، صغر الرأس ، أى ليس صغير الرأس حتى يشينه ذلك .

وسيم قسيم : الوسيم الحسن وكذا القسيم . وفى عينيه دعج أى سواد .

وفى أشفاره وطف : أشفاره منابت شعر عينيه ، جمع شفْر .

والوطف : الطول ، تعنى أن شعر عينيه طويل .

الصحل ؛ بفتح الحاء ، شيء كالبحة فى الصوت ، تعنى أن صوته ليس حادا .

الحور : أن يشتد بياض العينين وسواد سوادهما . وهو محمود بمنح الجمال .

الكحل : بفتحتين ، سواد خلقى فى أجفان العين . الأزج : الدقيق طرف الحاجبين . الأقرن : المقرون الحاجبين . فى عنقه سطع : أى ارتفاع وطول . الكثاثة : فى اللحية أن تكون غير دقيقة ولا طويلة . إذا تكلم سما : أى ارتفع على جلسائه بفصاحته . (وكأن منطقه خرزات نظم طوال يتحدرن) لعل وجه التشبيه التناسق بين كلماته وشدة اتصالها ، فأشبهت فى تناسقها وتتابعها الخرزات .

(فصل لا نزر ولا هذر) : فصل ، أى يفصل بين الحق والباطل . أو بين قاطع لا لبس فيه ، ولا نزر بسكون الزاى ، أى ليس بالقليل . ولا هذر بفتح الذال ، أى وليس بالكثير . ويطلق الهذر أيضاً على الكثير الردىء ، وعلى سقط الكلام . (ولا تشنؤه من طول) أى لا تبغضه من طول . (ولا تقتحمه عين من قصر) أى لا تتجاوزه العين إلى غيره لقصره ، فهو ربعة أى وسط .

(غصن بين غصنين) الغصنان هما : أبو بكر ومولاه عامر بن فهيرة ، والغصن بينهما هو الرسول صلى الله عليه وسلم .

(وله رفقاء يحفون به) هم : أبو بكر وعامر بن فهيرة ، والدليل ابن أريقط ، وهم يحفون به أى يحيطون به ، ويستديرون حوله .

محفود : أى مخدوم .

محشود : أى عنده حشد وهم الجماعة .

لا عابس ولا مفند : أى ليس عابس الوجه ولا كثير اللوم .

وصف آخر لناسوت الجمال :

تلقى أحد الواصلين من عباد الله الصالحين - ممن أوتوا نعمة لقاء سيدنا الخضر عليه السلام ، وتلقى العلم اللدنى وغير اللدنى منه - حديثا عن الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ، يعرض فيه إلى معجزاته الماثلة فى شمائله الخلقية وحليته الجسمية .

يقول عليه السلام :

كان محمد صلوات الله عليه ، مثلاً أعلى للجمال وما يستتبعه غالبا من القوة والجلال - ومادام الجمال من خصائص العظمة والبطولة كما تعبرون ، وهذا صحيح ، لأن الجمال على الحقيقة هو الغرض الأسمى الذى يترامى إليه كل ما فى هذا الكون من مُحَسَّات.ومعنويات ، فالسماء وما فيها من كواكب ونجوم جميلة ، والأرض وما فيها من بحار وأنهار وجبال وصحراوات ، وما تخرجه من زرع ونبات وما عليها من حيوان ، كل أولئك جميل . والأديان وأوامرها ونواهيها وكل ما تدعو إليه جميل . بل الغاية القصوى للجمال ، والعالم كله مسوق لتحقيق هذا الغرض الأسمى - الجمال .

أقول : مادام الجمال من خصائص البطولة أو العظمة أو العبقرية ، فإن من يكون أوفر حظًا من الجمال الحقيقى الذى لا متسع للإفاضة فيه الآن ، يكون أقعد فى باب العظمة ، فقد حقق ، لمحمد صلى الله عليه وسلم من هذه الناحية آية العظمة . إذ كان كما قلنا مثلاً أعلى للجمال ، وبذلك حقق الغرض الأسمى لهذا الوجود ، وكان هو لذلك مصدر كل خير وكل حق وكل جمال .

وإليك من صفته مصداق ما نقول :

كان محمد صلوات الله عليه فخماً مفخماً ، يتلألأ وجهه تلألؤ القمر ليلة البدر « ألق بالك كل الإلقاء » ، وكان أطول من المربوع[1] ، وأقصر من المشذَّب[2] ، عظيم الهامة[3] ، رَجْلَ الشعر[4] ، إن انفرقت عقيقته فرق ، وإلاّ فلا يجاوز شعره شحمة أذنيه إذا هو وفّره[5] ، أزهر

---

(١) المربوع : هو الرجل بين الطول والقصر .

(٢) المشذب : البائن الطول فى نحافة .

(٣) الرأس .

(٤) ليس بسبط ولا جعد .

(٥) العقيقة : شعر الرأس ، يريد إن انفرقت من ذات نفسها فرقها وإلاّ تركها معقوصة .

اللون[1] ، واسع الجبين[2] ، أزَجّ الحواجب ، سوابغ من غير قرن[3] ، بينهما عرْق يُدرّه الغضب ، أقنى العرنين[4] ، له نور يعلوه ، ويحسبه من لم يتأمله أشم ، كث اللحية[5] ، أدعج[6] ، سهل الخدين ، ضليع الفم[7] ، أشنب[8] مُفلجّ الأسنان[9] ، دقيق المسرُبة[10] ، كأن عنقه جيدُ دُمْية ، فى

---

(١) أبيض حسن نير .

(٢) الجبهة ، وسعة الجبهة مما يدل على قوة العقل والفهم والحواس إذا لم تكن مفرطة .

(٣) الزجج تقوس الحاجبين مع طول وامتداد . والقرن اتصال شعر الحاجبين .

(٤) العرنين والقنا طوله ودقة أرنبته مع جذب قليل فى وسطه وهو من آيات الجمال وعنوان السؤدد فى الرجال ، أما الشمم فهو ما خلا من الأحديداب .

(٥) يريد غير خفيفة ، وقد كانت لحيته صلى الله عليه وسلم معتدلة طولاً وعرضاً .

(٦) الدعج شدة سواد العين مع سعتها .

(٧) واسعه .

(٨) رونق الأسنان وماؤها .

(٩) الفلج فرق بين الثنايا .

(١٠) الشعر بين الصدر والسرّة ، والمراد أنه ليس بعريض ولا متكاثف الشعر .

صفاء الفضة ، معتدل الخلْق ، بادناً متماسكا[1] سواء البطن والصدر[2] ، بعيد ما بين المنكبين[3] ، ضخم الكراديس[4] ، أنور المتجرّد[5] ، موصول ما بين اللّبّة والسُّرّة بشعر يجرى كالخط ، عاريَ الثديين ما سوى ذلك أشعر الذراعين والمنكبين وأعالى الصدر ، طويل الزندَين ، رحب الراحة[6] ، شثن الكفين والقدمين[7] ، سائل الأطراف[8] ، سبْط العصب[9] ، خمصان الأخمصين[10] ، مسيح

---

(١) البادن الكثير لحم البدن ولكنه لكونه متماسكا يقوى بعضه بعضا ويشده ويمسكه فهو خفيف مكتنز .

(٢) مستويهما يريد اعتدال خلفهما وعدم خروجهما أو إحداهما عن الاعتدال .

(٣) وبعد ما بين المنكبين من أقوى دلائل قوة العقل والخلق .

(٤) الكراديس : العظام ، والمراد عظام يحسن عظمها كالجوارح والأطراف ، والعظام أساس الإنسان بعظمها يقوى ويحسن وتتم الحواس .

(٥) المتجرِّد الجسد : تجرَّد عنه الثياب ، وأنور بمعنى نيّر .

(٦) واسعها .

(٧) أى لحميها .

(٨) يريد ممتدها امتداداً معتدلاً بغير إفراط أو تفريط .

(٩) يراد بالعصب كل عظم ذى مخ ، والسبوطة الامتداد

(١٠) أى متجافى أخمص القدم وهو الموضع الذى لا تناله الأرض وسط القدم .

الأقدمين[1] ، ينبو عنها الماء ، إذا زال زال تقلعاً ، ويخطو تكفؤا ويمشى هوناً[2] ، ذريع المشية[3] ، إذا مشى كأنما ينحط من صبب[4] ، وإذا التفت التفت جميعاً ، خافض الطرف ، نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء ، جُل نظره الملاحظة ، يسوق أصحابه ويبدأ من لقيه بالسلام . وكان صلوات الله عليه لا يتكلم فى غير حاجة ، طويل السكوت ، يفتتح الكلام ويختتمه بأشداقه[5] ويتكلم بجوامع الكلم ، فصلاً لا فضول فيه ولا تقصير ، دمثاً ليس بالجافى ولا المهين ، يعظم النعمة وإن دقَّت ، لا يذم شيئا ، لم يكن يذم ذواقاً[6] ، ولا يمدحه ، لا يقام لغضبه إذا تُعُرِّض للحق بشىء حتى ينتصر له ، ولا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها ، إذا أشار أشار بكفه كلها ، وإذا تعجب قلبها ، وإذا تحدث

---

(١) أى أملسها .

(٢) التقلع : رفع الرجل بقوة ، والتكفؤ : الميل إلى سنن المتى وقصده ، والهون : الرفق والوقار . وكل هذه صفات أقوى الناس فى مشيته .

(٣) الذريع : الواسع الخطو .

(٤) أى من علو .

(٥) أى يستعمل جميع فمه للتكلم لا يقتصر على تحريك الشفتين .

(٦) الذواق المأكول والمشروب أى ما يتذوق .

اتصل بها فضرب بإبهامه اليمنى راحة اليسرى ، وإذا غضب أعرض وأشاح ، وإذا فرح غضّ طرفه ، جُلّ ضحكه التبسم ، ويفتر عن مثل حب الغمام ، من رآه بديهة هابه ، ومن خالطه معرفة أحبه ، ولعمرى ما رأيت قبله ولا بعده مثله .

الجمال الأسمى .. والجلال الأسنى

إن الله – كما يقول رسول الله – « جميل يحب الجمال » .. وإن الله مثال وأصل كل جمال .. وإنه لطيف ذو جمال مطلق ، أبدى ، علوى ، لا ينقص ولا يفنى ولا يتغير ولا يزول .. وإننا لن نصل إلى الجمال القدسى فى معرفة حقيقة الله إلّا إذا بدأنا بهذا الجمال الأرضى الذى يسمو بأرواحنا وقلوبنا فيوصلنا إلى عالم الخلود والأبدية بجوار عزيز مقتدر ..

يقول الإمام الغزالى : « لا خير ولا جمال ولا محبوب فى العالم إلّا وهو حسنة من حسنات الله ، وأثر من آثار كرمه ، وغرفة من بحر جوده ، سواء أدرك هذا الجمال بالحواس أم بالعقل . وجمال الله سبحانه أكمل الجمال » .

ويقول أيضا : « إن الجمال ينقسم إلى جمال الصورة الظاهرة المدركة بعين الرأس ، وإلى جمال الصورة الباطنة

المدركة بعين القلب ونور البصيرة . والأول يدركه الصبيان والبهائم ، والثانى يختص بدركه أرباب القلوب ، ولا يشاركهم فيه من لا يعلم إلّا ظاهرا من الحياة الدنيا . وكل جمال فهو محبوب عند مدرك الجمال »[1] .

ثم يقسم الغزالى ظواهر الجمال إلى ثلاث : حسية ، ووجدانية ، وعقلية . ويقول : « القلب أشد إدراكاً من العين ، فالقلب يدرك الأمور الشريفة الإلهية ، وإن المثل الأعلى للجمال هو الله » .

أما الفارابى فإنه يرى أن عملية احتضان الجمال ، والعيش فيه ، والاندماج فى بحره ، عملية مشتركة بين الإنسان والله ، لكن النسبة بين شعورنا بالجمال وبين مصدره فلا يتناهى أو تحده حدود . وهو فى نظره جمال الجمال ، وكله منه يفيض .. « المحب منه والمحبوب بعينه ، والمعجب منه هو المعجب بعينه ، فهو المحبوب الأول ، والمعشوق الأول » .. « المعشوق منا هو الفضيلة والجمال وليس العاشق منا هو الجمال والفضيلة » .

---

(١) « إحياء علوم الدين » الجزء ١٤ ص ٢٥٨٦ طبعة دار الشعب .

ويقول العارف الربانى سيدى عبد الكريم الجيلانى فى كتابه « الإنسان الكامل »[1] :

« .. واعلم أن جمال الحق سبحانه وتعالى وإن كان متنوعاً فهو نوعان : النوع الأول معنوى ، وهو معانى الأسماء الحسنى والأوصاف العلا ، وهذا النوع مختص بشهود الحق إياه ؛ والنوع الثانى صورى ، وهو هذا العالم المطلق المعبر عنه بالمخلوقات ، وعلى تفاريعه وأنواعه فهو حسن مطلق إلهى ظهر فى مجال الهيئة ، سميت تلك المجالى بالخلق .

« وهذه التسمية أيضاً من جملة الحسن الإلهى . فالقبح من العالم كالمليح منه باعتبار كونه مجلى من مجالى الجمال الإلهى لا باعتبار تنوع الجمال . فإن من الحسن أيضاً إبراز جنس القبيح على قبحه لحفظ مرتبته من الوجود ، كما أن الحسن الإلهى إبراز جنس الحسن على وجه حسنه لحفظ مرتبته من الوجود » .

ويقول : « إن الجمال المعنوى الذى هو عبارة عن

---

(١) الجزء الأول ؛ الباب الثالث والعشرون - ص ٥٣ .

أسمائه وصفاته ، إنما اختص الحق بشهود كمالها على ما هى عليه تلك الأسماء والصفات . وأما مطلق الشهود لها فغير مختص بالحق لأنه لابدّ لكل من أهل المعتقدات فى ربه اعتقادا ما أنه على ما استحقه من أسمائه الحسنى وصفاته العلا أو غير ذلك . ولابد لكل من شهود صورة معتقدة . وتلك الصورة هى أيضاً صورة جمال الله تعالى . فصار ظهور الجمال فيها ظهورا ضروريًّا لا معنويًّا ، فاستحال أن يوجد شهود الجمال المعنوى بكماله لغير من هو له تعالى الله وتقدس عما يقولون علوًّا كبيرا » .

أما ابن الفارض فيوغل بقلبه فى الحب ، ويعن بوجده فى الجمال ، ويقصر شعره على وصف هذا الجمال وتصويره ، وعلى التغنى بحبه له ، وإقباله عليه ، فى كل معنى من معانيه ، وفى كل مجلى من مجاليه ، حتى لقد صرف حياته الروحية وبراعته الشعرية وطاقته النفسية فى سبيل هذا الجمال الذى يتدفق شعره فى وصفه وتصويره ، بقدر ما يتدفق قلبه بحبه وتقديره .[1]

(١) عن « ابن الفارض سلطان العاشقين » للدكتور محمد مصطفى حلمى ، سلسلة أعلام العرب رقم ١٥ - ص ٢٣٧ .

وكان ابن الفارض يتحدث حديث النفس التى سمت عن هذا العالم السفلى ، بكل ما فيه من مظاهر الجمال ومشاهد الفتنة ، وحلقت فى سماء عالم علوى ، استطاعت أن تشهد فيه من الجمال مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، وهو ذلك الجمال الإلهى المطلق الذى لا يتقيد بقيد ، ولا يتحدد بحد ، بل هو مطلق فى ذاته عن كل قيد وكل حد ، فياض بكل مظهر أو مشهد من المظاهر والمشاهد الجميلة التى امتلأ بها الكون فى كل ناحية من نواحيه ، وعبر عنها فى كل معنى من معانيه .

ويحدثنا عمر بن الفارض عن شوقه إلى الجمال الإلهى الذى يتجلى فى كل الأشياء الجميلة بقوله :

تراه إن غاب عنى كل جارحة
فى كل معنى لطيف رائق بهج
فى نغمة العود والناى الرخيم إذا
تألفا بيت ألحان من الهزج
وفى مسارح غزلانْ الخمائل فى
برد الأصائل والإصباح فى البلج

وفى مساقط أنداء الغمام على
بساط نور من الأزهار منتسج
وفى مساحب أذيال النسيم إذا
أهدى إلى سميرا أطيب الأرج
وفى التثامى ثغر الكأس مرتشفا
ريق المدامة فى مستنزه فرج

وفى هذه المعانى السامية يقول الشاعر البغدادى « أنور شاؤل »[1] :

فى صفاء الضحى عبدت جمالك
ونسيم الصبا شممت خصالك
فى غناء الطيور فوق الأفانين
إلهى ! .. إنى سمعت مقالك
فى هزيم الرعود بين ثنايا الجو
فى البرق قد رأيت جلالك
وبلطف الزهر المندى وميل الغصن
غنجا إنى اجتليت دلالك

---

(١) مجلة « العصور » العدد ١٢ مجلد ٢ أغسطس ١٩٢٨ .

ليس زهر النجوم إلا مصابيح

تبث الأنوار منها حيالك

ليس دق القلوب إلّا ترانيم

نفوس مسبّحاتٍ كمالك

أى شىء لم يقتبس منك نوراً ؟

أى مال. يارب لم يك مالك ؟

لك شوقى ، حبى ، نصيبى وعزى

لك نفسى فاصنع بها ما بدا لك

ومن الشعر الرقيق الذى يستهوى القلوب ويطرب الأسماع قول الشاعر السودانى « التيجانى يوسف بشير » (١٩١٢ - ١٩٣٧) فى ديوانه « إشراقة » :

وعبدناك يا جمال وصُغْنا

لك أنفاساً هياما وحبّا

وحبوناك ما يزيدك يا لغز

وضوحا وأنت تفتأ صعبا

وذهبنا بما يفسّر معناك

بعيدا وأنت أكثر قربا

مـن تـــرى وزع المفــاتـن يــا
حسن ومن ذا أوحى لنا أن نحبا
ومن ترى علم القلوب هوى الحسن
وقـال اعبـدى من السحـر ربّـا
إنـــه صـــانـــع القلوب التى تنـ
ـصب فى قـالب المحـاسن صبّـا

فالتيجانى يؤمن بأن وراء هذا الجمال البشرى ، والجمال الطبيعى ، جمالاً أسمى وأعلى من الجمال الدنيوى . هو الجمال الربّانى ، وهو الذى يوحى ويلهم ، وهو الذى يصنع القلوب التى تخفق للجمال، وتهتز من السحر الشهى الحلال.

وكلما رنا ببصره إلى الجمال الإنسانى ، أدرك خالق هذا الجمال ، فرفع بصره إلى السماء فى خشوع وابتهال ، وطفق يسبح لهذا الواحد القهار ، الذى خلق آيات الجمال الفتون ، فإذا فيه ضلال لعقل ، وهدى لجنون :

يا طرير القلب من صاغ هذا الـ
ـحسن فى زهـوه وفى استكباره ؟
من أذاب الضيـاء فيه ومن نغـ
ـم شجـو الهوى عـلى أوتـاره ؟

من رمى من أصاب من صور الفتـ
ـنة ؟ من زرها على أزراره ؟
والفتور الذى بعينيك من مو
هـ سحر الحياة فى أقطاره ؟
صاغ هذا الجمال من لم ينم
عنه لصرف الزمان أو أغياره
صاغه من رضا الطفولة من ليـ
ـن ، ومن وقدة العرين أناره
حرت : ما الحب ؟ ما الهوى ؟ ما التعا
بير اللوائى يبنّ عن أسراره ؟
نظرة كالصلاة .. زلفى إلى اللـ
ـه وقربى لعزه واقتداره

وهكذا كانت نفسه تلوذ بالله تعالى كلما شاهدت الجمال ، لأنها تعتقد أنه وسيلة إلى عبادة الله تعالى . والتسبيح له ، والعياذ به ، واللجوء إليه .. وهو فى هذا الشعور يرقى إلى مصاف الشعراء المتصوفة الذين قادهم الحب إلى أعلى مراتب السمو الروحى .

مقاييس الجمال

قد يكون من السهل أن نتعرف على مواطن الجمال الطبيعي وتقدير قيمته ومعاييره في بعض مظاهر الطبيعة ، ولكننا إذا تصدينا لمقاييس الجمال البشرى فلا يمكننا أن نأمن الزلل .. ومهما اختلفت المعايير التي نقيس بها الجمال ، فإن هذا الاختلاف لايؤثر إلا قليلاً فى بصيرة النفس التى تعرف من الجمال أصوله وتنجذب إليه بقوة الغريزة .

فمن الحقائق الثابتة ، أن الرجل لا مقياس جديد لجماله ، بل إن المقياس القديم مايزال معمولاً به حتى الآن . فما يزال الرجل القوى النشيط المتين البنيان ، المتناسب الأعضاء ، هو المثل الأعلى منذ القدم حتى يومنا هذا ، وحتى مابعد العصر الذى نعيش فيه ، وذلك باستثناء بعض رجال اشتهروا بجمالهم ، أتينا بحديث عنهم فى فصل سابق .

أما المرأة فإن مقياسها دائماً يتغير ، ومن هذه الناحية نستطيع أن نقول إن كثيراً منهن على جمال كثير من وجهة نظرهن الخاصة ، وكثيرات من النساء يعرفن ناحية أو أكثر من نواحى الجمال . وهن يعددن بذلك جميلات فى نظر بعض الناس . ولكننا لانعنى هؤلاء ، وإنما نعنى الجمال الذى يجمع الفنان والمصور والنقاش ، على أنه مثل من أمثلة الجمال يستحق الخلود على لوحة أحد الفنانين ، أو فى تمثال آخر . وهذا الجمال هو الذى يتغير من آن لآخر وتدرك مقاييسه الانكماش والتمدد فى كثير من نواحيه .

وبرغم ذلك فإن الجسم السليم ، الصحيح ، يبقى برغم كل هذه المقاييس جدير بالاحترام والإعجاب والتقدير .

وهذا الجمال الصحيح ، الجمال الصحى الذى يدل على النشاط والفتوة ، وهو مايكسب الأنوثة المستحبة ، هو الذى نجرى وراءه والذى سنظل نجرى وراءه على مر العصور وإن اختلفت وجهات النظر واختلفت مقاييس الجمال ، لأنه سيكون بعد جديرا بالاحترام والتقدير جدارة « ڤينوس » بالخلود .

وهناك كثير من الصور الفنية للجمال نكتسبها اكتسابا

عن طريق البيئة وتربية الذوق .. ولكن الجمال الإنسانى لاتكتسب صورته اكتسابا ، وإنما هو مغروس فى النفس ومطبوع فى الذهن البشرى .

كنه الجمال :

وجميع الشعوب والأجناس تتفق جملة على كنه الجمال ، ولكنها تختلف عند الحكم على تفاصيله . فقد يختلف الصينى مع المصرى أو الانجليزى بشأن جمال الأثاث فى غرفة ما ، أو حسن الذوق أو سوئه فى بناء ما ، ولكنهم جميعا يتفقون ويجمعون على الوجه أو القامة الإنسانية الجميلة ، وإن كان بينهم اختلاف ما ، فإنه لن يتجاوز الهوامش والفروع . بل الزنجى نفسه يتفق والرجل الأوربى على ماهية الجمال الإنسانى ، ويرى فى المرأة الغربية الجميلة مثلاً أعلى .

يقول الكاتب الكبير عباس محمود العقاد :

« الوجه الذى يرى جميلاً على استواء واحد فى جميع الأوقات يغلب أن يكون له جمال اللحم والدم بغير معنى .. أما الوجه الذى تلتفت إليه فى خطفة عين فتراه رائع الحسن ، ثم تلتفت إليه فى خطفة عين أخرى ، فإذا هو

باهت لايروعك أول وهلة ، فذلك هو جمال (المعنى) الذى يقاس كما تقاس الأفكار ، ويدخل فى عداد المدركات النفسية دون المشهودات العيانية . والمدركات النفسية يختلف التهيؤ لفهمها باختلاف الأوقات » .

الجمال الحسى والجمال المعنوى :

قسم العلماء الجمال إلى قسمين : جمال ظاهر ، وجمال باطن .. جمال حسّى ، وجمال معنوى .. جمال جسمى ، وجمال نفسى .. فهل الجمال معنى أم حسّى ؟ هذا مانريد أن نعرفه . فلو قلنا إنه يتصل بالأول أخطأنا ، وإن قلنا هو الثانى أخطأنا . والحقيقة أن الجمال حسّى ومعنوى فى وقت معاً . وقد يكون عند شعب حسا ، وقد يكون عند شعب معنى ..

الجمال المعنوى يرجع للفضائل النفسية كرقة الشعور ، وسرعة الإدراك ، ووداعة الخلق فى عزة ، والرحمة ، والعطف بل ربما كان للجمال الذهنى المشرق ، والملكات الفكرية الباهرة ، أبعد أثر فى النفس وفى عصمة الجمال الحسى من الزوال . سئلت إحدى الصالحات : لم تكثرين

من صلاة الليل ؟ أجابت : إنها تحسّن الوجه ، وأنا أحب أن يحسن وجهى ، وصدق من قال : صُنْ الحسن بالتقوى وإلاّ فيذهب .

ومما يزيد من هذا الجمال : طلاقة المحيا ، والبشر . هدوء النفس وسكونها ، تجنب الحزن والهم ، وأهم من هذا كله الابتسامة الدائمة ، فلا شيء من المحسنات يزيد الوجه جمالاً ورواء كالابتسامة الصادرة عن الشعور الرقيق والأخلاق الطيبة .

وهذا الذى ذكرناه يساعد كثيراً فى الجمال الحسّى الذى تحتاج إليه المرأة أشد الاحتياج لأنه سلاحها الوحيد فى الحياة .. فلا ضير عليها إذا بذلت قصارى جهدها فى الحصول عليه بالطرق الطبيعية . فيكون الجمال فى أروع مجاليه ، والحسن فى أبدع مرائيه ، بل الملاحة معتدلة مزاجاً ، والفتنة منرقة مؤتلفة ، آحاداً وأزواجاً .

سر جمال المرأة :

وليس من شك فى أن الجمال أمر نسبى ، وإدراكه يختلف باختلاف الشعور ، والشعور خاضع لتأثير البيئة التى يعيش

فيها الإنسان ، والحياة الاجتماعية والدينية ، وتأثير الوراثة التى تحمل فى نفسها كل تلك المؤثرات .

ولما كان الوسط ومايتبعه من ظروف الحياة ليس سواء لكل أفراد البشر ، فإن كل إنسان ينظر إلى الجمال من ناحية خاصة وتحت ظلال معينة .

ومادام الجمال شيئاً ليس له مقاييس ، فأهم مايحقق للأنثى الجمال هو أن تؤمن بجمالها هى لابما تقبسه عن غيرها ، ولا بما تخفيه من ملامح قد تظنها عيوبا . وأن تضع نصب عينيها أن تجعل روحها تشع نورا على جسدها ... إن جمال الروح يتلاشى أمامه كثير من الدمامة ، أما المبالغة فى إخفاء ماتتوهمه المرأة عيوبا فقد يكون « تنكراً » يجعلها إنسانة أخرى غير التى يعرفها أصدقاؤها وصديقاتها . ولتذكر أنها مهما كان شكلها ومظهرها فستجد معجبين .. وإذا استطاعت أن تجعل من حولها يحبونها أكثر مما يعجبون بجمالها فقد بلغت الهدف .

والأجدر بحواء أن تتجاهل عيوبها وتبرز محاسنها وتتحلى بروح المرح والبهجة ، فيلاحظ الجميع جمالها مما يطغى على عيوبها .

تقول اللغة فى تعريف الإنسان الجميل إنه هو : « الذى يحرك قلبك حسنه » .. ولكن قلب من ؟ من أجل هذا كان من العسير تعريف جمال الأنثى ، فإن « الجمال » يتوقف على نظرة الناظر إليه .

ليست ملامح المرأة وقوامها هو سر جمالها ، فالجمال الحقيقى لاتراه العين ولكن تحس به الروح .

إن سر جمال حواء ينبع من داخلها ، وليس عن أى طريق آخر .. فالجمال ثروة تكمن داخل المرأة ... إنه هبة من هبات الله يمنحها لها ، وتستطيع المرأة بذكائها إبرازها وتنميتها بإرادتها ..

ويمكننا أن ننظر إلى الجمال من ناحيتين : جمال طبعى ، وجمال مكتسب . فالأول هو ماوهبته الإرادة الإلهية إلى بعض أشخاص من البشر ، فجعلتهم يرفلون فى صحة جيدة ، ويتمتعون بأعضاء كاملة وملامح فاتنة ، تمتزج بجاذبية نفسية وعاطفة روحية ، تطبعهم بطابع الخفة والأناقة . وأما الثانى فهو انتصار العقل الإنسانى وفوزه وقدرته على تغيير ملامح البشر .

وللجمال المنزلة الأولى فى حياة المرأة وتكوين

شخصيتها ، فهو الميزان الوحيد لقياس رقتها وأنوثتها .

يقول أحد رجال الأعمال :

إن تناسق قسمات الوجه أمر لابد منه للجمال ، ولكنه لايشكل الجمال بكل صوره ، فإن كثيرات من الفتيات اللواتى يدخلن مكتبى . هن – إذا نحن حكمنا مقاييس الجمال – من أروع النساء جمالاً ، ولكنى لا أكاد أراهن حتى أعجل بصرفهن ، فإنهن يمشين مشية النوق العجال ، وأصواتهن منكرة لاعذوبة فيها ، وعقولهن قاع ضحضاح لاغور فيه .

إن للمرأة الجميلة بهاء يشع من ذات نفسها ، فإن الجمال الحق يفيض من داخل النفس . وإلا فلماذا تكون المرأة أفتن ماتكون يوم زفافها ؟

وصدق الحكيم العربى القديم إذ قال : « إذا حسن من المرأة خفيّاها حسن سائرها : صوتها ومشيتها » .

وهاك بعض السمات المشتركة بين النساء الجميلات : بهاء الصحة ، والشعر اللامع البراق ، والصوت الخافت العذب ، والمشية المطمئنة ، والقد المعتدل ، والشخصية التى تفيض بالمرح والسعادة ، والشوق إلى المعرفة ، وقوة

الأخلاق وثباتها ، والثقة بالنفْس وإرسالها على سجيتها .

فإذا اجتمعت فى المرأة كل هذه الصفات ، فهى أجمل نساء العالم ، وأكثرهن جاذبية على الإطلاق .

فلسفة الجمال

عند أقدام الجمال تسجد الدنيا ، الجمال الإنسانى عامة ، سواء ما مسّ الرجال أو مسّ النساء ..

أيعوض عن الجمال أى عرض من أعراض الدنيا مهما كان لونه ، وكان شأنه ، وكان سبيله ؟ .. أكبر الظن أن لا .. جَلَّ الله .. تنم كتب الدين بكثير من حكمه فى خلق الناس والدنيا والأرض والسموات . ولكنها تضن بأن تنم عن حكمة واحدة فى خلق الجمال ، أو فى خلق القبح . وتنم عن حكمة واحدة كذلك فى توزيع تلك الهبة الخلاقة السحرية ، وهى الجمال ، على الناس من أبناء آدم وبنات حواء .. تلك النعمة التى أشاد بها القرآن الكريم فى قوله تعالى : ﴿ ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون ﴾[1] وتغنى بها داود عليه السلام فى « مزاميره » .

---

(١) سورة النحل – الآية ٦ .

والإنسان إنما يتعبد الجمال فى كل ما يقع تحت حواسه من الأشياء التى تستثير - بما فيها من أسرار كامنة ومميزات خاصة - شعورا خفيًّا فى نفسه ، يدفعه إلى الإعجاب بهذا الجمال ، وإطراء ما فيه من مفاتن ومحاسن . وهذه الأسرار الخفية التى تكمن فى الأشياء ، وتسترعى حواس الإنسان وتجتذبها نحوها ، إنما هى عوامل التوافق بين ما تطلبه الحاسة الجسمية نفسها ، وما تجده فى الأشياء المختلفة من كفاية لسد حاجتها وشهوتها .

والجمال إما بصرى تدركه العينان ، أو صوتى تدركه الأذنان ، أو ذوقى يدركه اللسان ، أو غير ذلك تدركه بقية الحواس .

فحاسة البصر مثلاً - تستشعر الجمال فى الصفاء والتناسق وتناسب التراكيب وتوافق الألوان ، أى فى الأشياء التى تتحكم فيها هذه الحاسة ، وتجد فيها ما يدعو إلى لذتها . ولذا فهى تميل دائماً إلى المناظر الصافية البديعة ، والأجسام المتناسقة الرشيقة ، والألوان المتوافقة الهادئة التى لا يمجها الذوق ، فنحن إذا قلنا إن جو اليوم بديع جميل ، هل معنى ذلك أننا استشعرنا جمال الجو

بلساننا ؟ .. كلا ولكنها حاسة البصر هى التى ارتاحت وائتلفت مع صفاء الجو . كذلك الحال فى باقى حواس الجسم ، فالسمع مثلاً يستشعر الجمال فى الأنغام الشجية المطربة .. والذوق يستشعر الجمال فى الأشياء العذبة الحلوة . والحس يستشعر الجمال فى النعومة والليونة . والشم يستشعر الجمال فى الروائح العطرية المنعشة .

فإذا كان العالم كله يوزع حواسه المختلفة ، ليستلهم الجمال ويتذوقه من مصادر متعددة متباعدة فى أجسام صماء ، وكتل صامتة ، فما الحال لو جمع هذا الجمال كله وصب فى هيكل امرأة ميزتها الروح الحساسة ، النبيلة ، والقلب النابض الخفاق .. يالها من روعة وفتنة أجاد الرسم راسمها ، وافتن فى الإبداع باريها !! .

هذه المرأة ، يود الرجل فى كل العصور ، أن يستوحى صفاء الجو من جمال عينيها .. ورشاقة ڤينوس من تمايل خصرها .. وعذوبة الماء من نقاوة لفظها ، ورحيق ثغرها ، وأريج الزهر فى رائحة طيفها ..

وهذا الجمال موجود فى كل مكان . فإذا وعته أعيننا ، وكانت صفحة عقلنا يقظة لالتقاط المرئيات ، فإننا نجد فى

كل لحظة ما يستوجب إعجابنا بآيات الجمال ، ذلك الإعجاب الذى هو نوع من العبادة . فإذا فشلنا فى إدراك الجمال . فإننا بذلك نفقد بهجة الفنون ومتعة الحياة .

جمال الكون :

إننا إذا تركنا الفن أو الأدب يحدثنا عن روعة الجمال ، جعلنا ننصت إلى تغريد الطيور ، وهدير الحمام ، وسجع البلابل ، وشدو الكروان ، ونرى بهجة الرياض المونقة ، الناضرة ، وفيها الأغصان متعانقة ، متشابكة ، متدلية على حافة النهر الصافى ، كالعين الزرقاء فى الوجه الجميل . والورد بهيج نضير فى كمائمه .. ونبصر أشعة الشمس فى موكب جلالها مشرقة على الكون تهبه الحياة والدفء والنشاط .. وتستفز المرء إلى طلب المزيد من الحياة .. وجمال منظرها فى الشروق والغروب ، وعمق أثرها فى النفس الرقيقة الحسّاسة .. ويصور لك الليل بنجومه السافرة المتألقة فى كبد السماء تخطف الأبصار .. وقمره الفضى الهادئ الوديع ينشر فى الفضاء غلالة منسوجة من خيوط الماس الدقيق ، يبعث فى النفس الرضا

والاطمئنان ، ويبعث فيها القوة وحب الحياة ، والابتسام لكل ما فيها من سمو ورونق وجمال .

جمال الطبيعة :

الطبيعة هى بلا ريب أصل الجمال ومبعثه . ومنها يستمد الشعراء وحى أشعارهم ، والرسامون مصدر إلهامهم ، وإليها يهرع المحب والمكروب فيجد أن فى جمالها عزاء وسلوى .

ومهما أبدع الشاعر أو الكاتب أو الرسام فى الشعر أو الوصف أو الرسم ، فإنما هم يقلدون الطبيعة ولا يجارونها . وبقدر اتقانهم فى تقليد جمالها ومحاكاته ، يكون حظ أحدهم من النبوغ .

وجمال الطبيعة ماثل فى كل مظهر تظهر فيه ، سواء كانت ساكنة فى غابة ، أو صاخبة فى عاصفة ، أو عالية شامخة فوق جبل ، أو واطئة متواضعة فى واد سحيق . وسواء كان الوقت صيفا أو شتاءً أو ربيعا أوخريفا . وسواء كان ليلاً أو نهارا أو وقت الشروق أو الغروب ، فحيثما وليت وجهك رأيت جمال الخالق فى جمال صنعه ..

﴿ تبارك الذى إن شاء جعل لك خيرا من ذلك ﴾[1] .
﴿ ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين ﴾[2] .
« وملاحة المرأة فى نظر الجنس البشرى أعلى صور الجمال ، ومنبع جميع الصور الأخرى ومعيارها . يقول خيال بافنوس فى تاييس : « أنا جمال المرأة فأين تظن أنك تهرب منى أيها الأحمق المجنون ؟ ستجد مثالى فى بهاء الأزهار ، ورشاقة النخيل ، وفى تحويم الحمام ، ووثب الغزلان ، وفى خرير الجداول ، وفى ضوء القمر الشاحب . وإذا أغمضت عينيك فستجدنى فى داخل نفسك »[3]

الجمال فى كل مكان :

والجمال - قبل ذلك وبعد ذلك - حقيقة مطلقة تشترك فى تقديرها العاطفة ، والوراثة ، والمزاج ، والبيئة ، والتعليم . وتقدير الجمال إنما هو تقدير نسبى تشترك فيه

---

(١) سورة الفرقان - الآية ١٠ .
(٢) سورة غافر - الآية ٦٤ .
(٣) عن « مباهج الفلسفة » ، ول ديورانت - ترجمة الدكتور الأهوانى ، الكتاب الأول ص ٢٩١ - مؤسسة فرانكلين ؛ ١٩٥٧ .

عناصر كثيرة متباينة . وهو – مع ذلك – سرمدى ، لا متناهى ، أزلى ، أبدى ، عالمى ، شامل .. بعيد بعيد كالنجم حين يخفى نفسه فى أحضان الليل .. قريب كعينى طفلك الصافيتين حين تبعثان فى قلبك الحنان ، وتضفيان عليه الجمال ، كل الجمال ..

والجمال موجود فى كل مكان ، كائن فى كل شىء .. فهو أحيانا يكون فينا ، فى طوايا أنفسنا ،، كأنفاس طائر صغير ، يحب كل الأشياء الصغيرة الجميلة ..

وهو فى بعض الأحيان ، حين نكون فى أسمى حالاتنا ، يجعلنا نشعر كأننا على درجة كبيرة من الحسن والرواء . ونرى أنفسنا فى كل مكان ، وفى كل شىء : فى نهاية الأفق البعيد ، على مدى البصر ، حيث تميل السماء على الأرض وكأنهما تتعانقان .. وفى السحب التى تخلب اللب وتفتن الفؤاد بروعة ألوانها .. وفى أمواج البحر وهى تنسج زبدها السحرى ، وتوقع لحنها الأبدى ، الأزلى ، فى سيمفونية رائعة .. وفى أسراب الطيور الرشيقة ، بحركتها الخفيفة ، وتغريدها الشجى .. وفى الحشائش الهاجعة كبساط من سندس .. وفى المراعى الهادئة ، حيث سنابل القمح الذهبية

تلسعها الشمس وتداعبها النسمات .. وفى وجوه أصدقائنا ولداتنا وأحبابنا .. وهكذا ، كلما رأينا شيئاً من هذا ازددنا جمالاً وازددنا جلالاً ..

* * *

والجمال قوام الوجود ، وجوهر الحياة ، ولب لباب الكون . فإذا نحن شعرنا بجوع أو ظمأ روحى ، فلنبحث عن الجمال يغذينا ويروينا ، ويملأ رئتينا هواءً نقيًّا ، وقلبنا حبًّا تقيًّا .. فالجمال للإنسان بمثابة الخبز الذى لا غنى له عنه .. ومن أطعم بالجمال القلوب الجائعة ، فهو أشبه بسَرِىّ من سراة النفوس ، يطعم بالخير وبالحب الأجسام الجائعة .

والجمال - ككل شىء فى الوجود - يجىء ويذهب .. فهو كبسمة تتألق على وجه صبيح ، لطيف . تشف عما وراء الوجه الأليف من فرحة وحبور . أو كإشراقة على جبين الزمن . كذلك خلف أى جمال يمنحنا الغبطة ويهبنا السعادة ، يوجد نفس الجمال ، القادر على إعطائنا كل الجمال اللا نهائى ، الذى يأتى ويروح .. الجمال الذى يلاحق بعضه بعضاً ، ويتعقبه كالطيور الأليفة .. كالسماء

الصافية .. كالنجوم اللامعة .. كنسيج الأمواج السحرى فى ملاحقته الدائمة ، ومتابعته المتواصلة اللا نهائية ، السرمدية ، فى حركة رتيبة أو إيقاع بديع .. حيث تصب الأنهار فى المحيطات إلى المجهول .. كالوميض الذى ينبعث من عينى عاشقين .

غير أن هذا الجمال الذى يأتى ويروح ، إذا راح ترك فينا أثراً . ترك فينا الجلال والبهاء والعظمة ، حيث تبقى جميعها فينا وتستقر وتضفى علينا الروعة والمهابة .

رأيت غلاما صغيرا يتأمل الشمس عند الأصيل وفى عينيه سؤال : « والغروب .. أين يذهب ؟ » .. وتبدو عليه الحيرة فى الاهتداء إلى جواب .. وإذا هو بعد لأى يعرف أنه يغيب فى غيب ، وينطوى فى مجهول : فى صمت طفل شاخص ببصره إلى السماء فى حالة تأمل وابتهال ؛ وفى بريق صورة لفنان ؛ وفى لحن أغنية لشاعر ؛ وفى قلب العاشق المتبتل حيث يغدو لهيبا يتأجج فى محراب الجمال .

* * *

والجمال يهذب الأخلاق . فالمحب للجمال لا يمكن أن يكون أبدا فظًا أو غليظًا . وإذا استقر فى القلب الجمالُ

فلن يكون فيه مكان أو ثغرة من مكان لكره أى شىء . ولن يكون فيه مثقال خردلة من بغض لأى فرد . ولا يمكن أن تكون فى النفس الطيبة الجميلة أية قسوة ، ولا فى القلب الجميل أثر من رجس أو دنس .

والجمال يشرّف الإنسان ، ويرفع قدره ، ويعلى مكانه فى العالمين ، ويسمو به إلى أعلى عليين .

والجمال هو الذى يؤلف بين القلوب ، ويوحّد حبّاتها ويرقيها ، ويصونها من الابتذال . فإذا الصورة المجتمعة من كل هذا ، تسحر العين ، وتسلب اللب ، وتثير الوجدان ، وتلهب الحسّ ، وتأخذ بمجامع القلب ، وتهز المشاعر ، وتطرب الأذن ، وتجلب للنفس المتعة .

وأكثر من ذلك فهو زينة الحياة الدنيا ، وسرّ سعادتها ، والأنشودة التى لا يمل سماعها ، وهو رسول الملائكة على الأرض . وهو السلام العظيم ، الذى يدعو البشر إلى التصافى والسكينة ، وإلى الحب والخير ، وإلى العيش فى استقرار وأمان ، لا يعكر صفوه مثقال ذرة من ضغينة ، أو مقت ، أو كراهية ، أو عداء .

فما أشد حاجة العالم الإنسانى حقًّا إلى الجمال .

وما أحوجنا إلى غرس بذور الجمال فى نفوسنا كيما نتحلى بخصائص الجمال .

وما أحرانا أن نرفع أكفنا إلى السماء مبتهلين إلى الحق المتجلى بالجمال ، ربنا ، رب الجمال وخالقه ، متوسلين بحبيبه لاهوت الجمال ، ناسوت الوصال ، أن يضع الجمال فى أنفسنا . وأن يجملنا بكل ما هو جميل ، حتى نحب بعضنا البعض ، وحتى تترابط قلوبنا ، وتميل الأنفس إلى الخير ، وتهيم الأرواح مع الأرواح .. وحتى توفق النفس نغماتها الموسيقية الشجية ، مع لحن الحياة ، كما تكون أكثر استعداداً لتأدية ما عليها من واجبات .

فهرس

الصفحة

الصفحة

الصفحة

اقرأ فى هذه المجموعة

صوت أبى العلاء	د . طه حسين
أحلام سهر زاد	د . طه حسين
فى بيتى	عباس محمود العقاد
الشيخ الرئيس ابن سينا	عباس محمود العقاد
المهدى والمهدية	أحمد أمين
الصعلكة والفتوة فى الإسلام	أحمد أمين
خاتمة المطاف	على الجارم
أبو نواس	د . عبد الحليم عباس
دماء وطين	يحيى حقى
العشاق الثلاثة	د . زكى مبارك
سيكلوجية الجنس	د . يوسف مراد
النسيان	د . أحمد فؤاد الأهوانى
الحب والكراهية	د . أحمد فؤاد الأهوانى
الوجودية والإسلام	محمد لبيب البوهى
الأمن والسلام فى الإسلام	د . جمال الدين الرمادى
الغزالى	طه عبد الباقى سرور

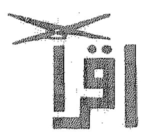
الإمام المراغى	أنور الجندى
بنت قسطنطين	محمد سعيد العريان
شاعر الشعب	د . سامى الدهان
قصص الحب العربية	د . عبد الحميد إبراهيم
غرائب الرحلات	محمد عبد الغنى حسن
عود على بدء	إبراهيم عبد القادر المازنى
غرام الأدباء	عباس خضر
أبو زيد الهلالى	محمد فهمى عبد اللطيف
عبد الرحمن الجبرتى	خليل شيبوب
ليلى العفيفة	عادل الغضبان
نساء محاربات	صوفى عبد الله
أبو القاسم الشابى	رجاء النقاش
جابر بن حيان	محمد محمد فياض
الصديقة بنت الصديق	عباس محمود العقاد
الكعبة على مر العصور	د . على حسنى الخربوطلى
غادة رشيد	على الجارم
الأحلام والرؤى	د . عبد العزيز جادو
النوم والأرق	د . أحمد فؤاد الأهوانى
جحا فى جامبولاد	محمد فريد أبو حديد
عمر بن عبد العزيز	أحمد زكى صفوت
نديم الخلفاء	عبد الستار فراج

طاغور	د . جميل جبر
طرائف من التاريخ	مصطفى الشهابى
تيمورلنك	محمد محمد فياض
شيخ التكية	محمد عبده عزام
المدينة المسحورة	سيد قطب

رقم الإيداع		١٩٨٨ / ٣٥٠٩
الترقيم الدولى	٩٧٧-٠٢-٢٤٧٥-٨	ISBN

١ / ٨٨ / ١٠

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)



بهذا الفعل الجميل (اقرأ) : تدعوك دار المعارف إلى قراءة تراث هذه السلسلة العريقة .. بأقلام كبار كتابنا .. لتعيش معهم .. كما عاش الآباء والأجداد .. وتكوِّن فى مكتبتك موسوعةً متفرقة فى فروع المعرفة المختلفة .

وإيمانًا منا بأن القراءة هى أقصر الطرق إلى الوعى والثقافة .. فقد يسَّرنا لك ذلك فى إخراج جيد .. وسعر زهيد .

